عبد القادر القط

شعر

ذكريات شباب

عَبدالقادِر القط

ذكرَياتُ شبابٍ

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي "الفجالة"

دار مصر للطباعة
٣٧ (أ) شارع كامل صدقي "الفجالة"

مقدمة

كان من حق هذه القصائد أن تنشر منذ خمسة عشر عاما ، فقد نظمتها بين عامى ١٩٤١ و ١٩٤٣ . ثم سافرت إلى الخارج قبل أن يتاح لى نشرها فى ديوان كامل ؛ فلما عدت بعد خمس سنين كان قد طرأ على إدراكى للحياة تحوّل كبير جعلنى أحس بشىء غير قليل من الغربة نحو ما تضمنته قصائدى من عواطف لم أعد قادرا على الشعور بها بمثل ما فيها من حدّة وقوة انفعال . ولكننى مع ذلك لم أفقد رضائى عنها من حيث تعبيرها ونجاحها فى تصوير تلك العواطف الجياشة التى كانت تملأ علىّ صباى ، ولم أستطع أن أقطع بينى و بينها تلك الصلة النفسية الوثيقة التى تقوم دائما بين الأديب وعمله ، ولا أن أفقد ما أحمل لها من حب ، وهى جزء عزيز من شبابى بقلقه وحيرته ، وعجزه وقوته .

وهكذا ظلت فكرة نشرها تراودنى من حين إلى آخر فتبلغ بى الحماسة فى بعض الأحيان أن أدفع بأصولها إلى الناشر ، ثم يستبد بى التردد والإشفاق فأنثنى عما اعتزمت . وقد أكد هذا التردد فى نفسى أن لونا جديدا قد ظهر فى الشعر العربى ، فنبذ هذا الإطار الذى كنت أنظم فيه ، وتلك التجارب الذاتية التى صورتها فى شعرى القديم وأحدث بهذا ثورة

فنية كبيرة كنت فى أول الأمر من أكثر الناس انتصارا لها ، وأحسست أنه ينبغى لى أن أتريث حتى أرى ما يكون من أمر هذا المذهب الجديد ، وحتى لا يكون هناك شىء من التناقض بين نشرى لقصائدى القديمة و بين حماستى للشعر الجديد .

ولكن الشعر الجديد لم يلبث أن تحوّل — فى معظمه — عن الطريق الذى كان قد بدأ السير فيه ، فغلبت على أسلوبه نثرية مسرفة ، واتخذ لنفسه — على حداثته — قوالب يرددها الشعراء فى معظم قصائدهم ، وطغى على مضمونه جانب الدعاية المباشرة للقضايا السياسية والأحداث الاجتماعية دون نظر كبير إلى الجانب الفنى ، وخدع كثير من الشعراء الناشئين بما يبدو فى طريقة نظمه من سهولة ظاهرية ، فأولعوا به وغمروا الصحف والمجلات بقصائد فجة قبل أن يكتمل لهم ما ينبغى من ثقافة لغوية وفنية ونضج فى الفكر والعاطفة . وهكذا أدرك كثير ممن آزروا هذا الشعر فى أول الأمر أنه — رغم النماذج الناجحة التى قدمها الموهوبون المخلصون من أصحابه — لم يزل فى دور التجربة التى قد تنتهى به إلى مسالك وأشكال جديدة ، أو تردّه إلى شىء من القصد والاعتدال . و بدأ الناس يشكون فى قدرته على أن يخلف الشعر القديم فيصبح اللون الأوحد فى شعرنا الحديث .

ومع أنى أعتقد أن النماذج الناجحة من هذا الشعر قد أثبتت أنه يستطيع — حين تتاح له الملكات الكبيرة المخلصة والثقافة اللغوية

والفنية الواعية — أن يكون أداة للتعبير الشعرى الصادق العميق ، فقد بدأت أحس كما أحس غيرى من الناس بأن أمامه طريقا طويلا شاقًا لابد أن يجتازه قبل أن تتأصل مقوماته ، وتنضج أساليبه وصوره ، ويصبح الإطار الأول لشعرنا الحديث .

لذلك زال ما كان يستبد بى من تردد فى نشر هذا الديوان، وأخذت أعيد النظر فى أمر الشعر القديم لأرى إن كان حقا — كما يقول أصحاب المذهب الجديد — عاجزا بطبعه عن أن يخرج تجربة الشاعر فى صورة متكاملة الأجزاء دون أن يحول بينه وبين ذلك ما فيه من قيود القافية واتساق الشطور .

وأصحاب المذهب الجديد يأخذون على القصيدة العربية فى أشكالها التى تخالف شكل مذهبهم ، اعتمادها على وحدة البيت وتفكك أجزائها وتكلف الشاعر فيها لكثير من الإطناب اللفظى الذى يفرضه عليه ما للبيت من طول محدد وشطرين متساويين . ولا شك أن فى القصيدة العربية القديمة كثيرا من هذه الصفات التى نراها الآن عيوبا يجب أن يتنزّه عنها الشعر . ولكننا نخطىء حين نظن أن تلك الصفات فى قصائد كبار الشعراء القدماء خضوع — فى كل حال — لقيود القافية والوزن ، وعجز من هؤلاء الشعراء عن أن يعبروا عما فى نفوسهم من عواطف وأفكار تعبيرا دقيقا متكامل الجوانب . فالحق أن مانراه فى قصائدهم من تلك الصفات إنما هو تعبير صادق عن طريقة إدراكهم لما يعرض

لهم من تجارب ، والصفات التي لا نحبها في ذلك الشعر ليست في الحقيقة عيب الشكل القديم في ذاته بقدر ما هي تصوير لطريقة إدراك خاصة تختلف عن طريقة إدراكنا الحديثة للحياة والأشياء .

وقد أوردت الآنسة « نازك الملائكة » في مقدمتها القيمة لديوانها « شظايا ورماد » بيت المتنبي :

أرى كلنا يبغى الحياة لنفسه

حريصا عليها ، مستهاماً بها صبا

وأبانت ما تكلفه الشاعر في رأيها لكي يتم للبيت ما ينبغي له من طول محدد وقافية خاصة ، فقالت إن المعنى يتم عند قوله « حريصا عليها » أما قوله « مستهاماً بها صبا » فليس إلا تكملة للوزن ووصولا إلى القافية . وما أظن أن المتنبي قد أحس بأنه تكلف شيئا من هذا ؛ و إنما عبر تعبيرا صادقاً عن إحساسه بفكرته بالطريقة التي كانت تقتضيها روح العصر وطبيعة الحياة وأسلوب الناس حينذاك في إدراك الأشياء والتعبير عنها . وليس ما في البيت من إطناب إلا انعكاسا لما كان في حياة هؤلاء الناس من فراغ، وما كان في إحساسهم من حدّة ، وما كان في طريقة معيشتهم ومأكلهم وملبسهم وعمارتهم من زخرف و « إطناب » . وما نأخذه الآن على القصيدة القديمة من تفكك أجزائها واعتمادها على وحدة البيت ليس بدوره إلا انعكاسا لطريقة القدماء في إدراك الأشياء إدراكا

جزئيا ليس فيه هذه النظرة الكلية الشاملة التى تطبع تفكيرنا و إحساسنا فى العصر الحديث .

و إذا كان الإطار القديم ليس عاجزا بطبعه عن أن يصوّر تجارب الشاعر تصويرا ناجحا ، فليس ما يمنع إذن من أن يستخدمه الشاعر الحديث فى شكله المتطور الذى يناسب حياة الشاعر وطبيعة اللغة فى عصره . ولاشك أن الشكل القديم قد تطور تطورا كبيرا على يد الشعراء المحدثين، فانتفت عنه الألفاظ الغريبة والصور التقليدية ، وأصبحت أبياته أكثر تماسكا واتحادا . وقد تجاوز الشعراء — كما هو معروف — هذا الشكل التقليدى المحض إلى القصيدة التى تعتمد على وحدة المقطوعة والقافية المتغيرة ، فأتيح للشاعر مجال أرحب للتعبير عن تجربته ، وقلت القيود التى تحدّ من قدرته على الإبداع ، واستطاع كثير من الشعراء أن يأتوا فى هذا الإطار بروائع يعتز بها أدبنا الحديث .

لذلك أعتقد أننا لا ينبغى أن نرفض بعض شعرنا المعاصر لمجرد أنه قد نظم فى أشكال تخالف « الشعر الجديد » ، بل لا بد أن نحكم عليه بمقدار ما فى مضمونه من قيم ، وما فى صياغته من فن ، وأن نقرأه بما يجب لقراءة كل شعر من حسن الظن والاستعداد النفسى الطيب لتلقى ما يريد الشاعر أن ينقله إلينا من عواطف وأفكار . صحيح إن بعض شعرائنا المعاصرين ممن ينظمون فى هذا الإطار القديم لا يزالون يتبعون الطريقة التقليدية المحضة بكل مقوماتها دون اعتبار لما طرأ على اللغة وأساليب

الشعور والتفكير من تطوّر كبير ، ولكن ذلك لا يجوز أن يصرفنا عما قد يكون فى شعر غيرهم من أعمال جميلة ناجحة تمثل روح العصر وطبيعة الشاعر فى أسلوب حى جديد . ولست أزعم أن شعرى من هذا الطراز ، ولكنى أضعه أمام القارئ ليرى فيه رأيه وإن كنت أستطيع أن أقول إنى التزمت فيه غاية الصدق فى التعبير عما كنت أحس به حينذاك . وأذكر فى هذا المقام أنى حين قلت فى قصيدة « رؤيا » :

قد بكينا وأَمِنّا أن نرى
والأسى فى وحشة الظلماء يحلو
دمعة فى الليل ما أروعها
تتلوى مثلما ينساب صِلٌّ
مثل لذع النار قرّت فى فمى
ولها فى وجهى المحرور غِلٌّ

طاف بخاطرى ما يزخر به الشعر التقليدى من إغراق فى الحديث عن الدموع والبكاء ، فأشفقت أن يؤخذ قولى على أنه مجرد اتباع لتلك السنة المألوفة ، وأحسست بضرورة الاعتذار عن هذا الانفعال العنيف فأتبعت الأبيات السابقة بهذين البيتين :

لا تخلها بهرجا من شاعر
يملأ القول من الزيف ويغلو

فلقد تعـــــلم يا طيفىَ أنى
ما ذكرت الدمع فى شعرى قبلُ

وقد يظن بعض القراء أن هذا الدفاع عن الأشكال التقليدية لا ضرورة له ، لأن أحدا لا يرفضها كل الرفض ، أو يقول بأنها لم تعد صالحة للبقاء إلى جانب « الشعر الجديد » . لـكن الحقيقة أن كثيرا من شعراء الشكل الجديد وأنصاره يرون هذا الرأى ، كما يعرض معظم الناشئين عن القوالب القديمة مسايرة منهم لروح التطور من ناحية ، وفرارا مما تتطلبه تلك القوالب من ثقافة لغوية وفنية واسعة من ناحية أخرى. وهذا الدفاع إذن ليس موجها إلى الذين لا يزالون يؤمنون بصلاح تلك الأشكال التقليدية وجمالها ، وإنما قصدت به أن أنبه الناشئين إلى أنه من الخير لهم أن يبدءوا بالطريقة القديمة فى أحسن صورها وأكثرها ملاءمة لروح العصر ، ثم يتطوروا بعد ذلك تطورا طبيعيا إلى الشكل الجديد بعد أن تكون قد تهيأت لهم أسباب النجاح فيه . والحق أن النماذج الناجحة من هذا الشعر لا تتأتى إلا لمن راض ذوقه اللغوى والفنى رياضة طويلة بالقراءة فى الشعر العربى القديم والحديث ، وممارسة الأشكال التقليدية بما فيها من قيود تفرض على الشاعر أن يولى فنه كثيرا من الجهد والعناية ، وتكسبه القدرة على أن يسيطر على اللغة و يستخدمها بكل مالها من إمكانيات . وهؤلاء الناشئون فى حاجة إلى هذه الثقافة

الفنية الكبيرة ، لأن الفرق بين روح الشعر والنثر فى الشكل الجديد خيط دقيق لا يفطن إليه إلا من أوتى الحس المرهف والإدراك السليم لروح اللغة العربية وأساليبها المختلفة . ولست بذلك أدعو إلى أن يظل الشعراء مرتبطين إلى الأبد بهذه الأساليب القديمة ، ولكنى أعتقد أننا لا يمكن أن نقطع صلتنا بها قبل أن يصبح لشعرنا الجديد تراث ناضج ضخم يستطيع الناشئ أن يصقل به ملكاته ، ويستمد منه ويبنى على أساسه .

هذا من حيث شكل الديوان ؛ أما مضمونه فيدور معظمه حول تجارب عاطفية مما يعرض لكل شاب فى مطلع صباه . وهى تجارب يغلب عليها الشعور بالحيرة بين مثالية الشباب وواقع الحياة ، وتتسم بكثير من الإحساس الحاد بالحرمان والتفكير القلق فى المستقبل .

وقد قامت فى مجتمعنا من الظروف والمشكلات منذ أن نظمت هذه القصائد ما تطور بالشعر العربى والأدب عامة إلى الواقعية ، وأصبح الأدباء الواقعيون لا يرضون كثيرا عن الشعر الذاتى الذى يتحدث فيه الشاعر عن عواطفه الخاصة بصورة لا ترتبط فيها بجذورها الاجتماعية ومظاهرها الإنسانية الشاملة . ولا شك أن هؤلاء الأدباء على جانب كبير من الحق فى موقفهم من الشعر الذاتى ، ولكنهم مع ذلك يظلمون كثيرا من هذا الشعر حين لا يرون فى تصويره الحاد لعاطفة الحب

إلا تعبيرا عن أحاسيس فردية خالصة لا ترتبط ارتباطا وثيقا بمشكلات المجتمع . فالحق أن الشعراء الرومانسيين فى تعبيرهم عما يلقون فى الحب من أسى وقلق وحيرة لا يصوّرون مجرد شعور فردى محض فى موضوع عاطفى واحد ، وإنما يعبرون عن موقفهم من الحياة والمجتمع بوجه عام ويتخذون من المرأة مرآة يعكسون عليها ما يشعرون به من الضياع والفشل فى مجتمع لم يبلغ من التقدم حدا يتيح لهم أن يحققوا ما يراود نفوسهم المتطلعة من طموح ، ويمنح إحساسهم المرهف ما ينتهى به إلى الشعور بالطمأنينة والرضى . وهم يتخذون من الحب وسيلة إلى هذا التعبير ، لأنه تجربة حيوية تصادف كل إنسان على نحو غريزى ملحّ ، وتتبلور فيه معظم القيم الأخلاقية والاقتصادية والاجتماعية فى حياة الناس . ولو لم يكن الأمر كذلك لما أمكن مثلا أن نفسر إصرار شاعر مثل ناجى على المضىّ حتى آخر حياته فى مذهبه الرومانسى ، وشعره المسرف فى العاطفة ، بما فيه من تقديس للمرأة غير طبيعى عند من كان فى مثل سنه وظروفه الاجتماعية التى كان لا بد أن تهيئ له كثيرا من الاكتفاء العاطفى فى هذه الناحية .

وسيرى قارئ هذا الديوان أن موقف الشاعر من الحياة بوجه عام يشيع فى معظم قصائده حتى ما كان منها فى الظاهر خالصا لعاطفة الحب . فهو يبدأ بقصيدة عنوانها « قلق » تصور حيرة الشاعر أمام مسالك الحياة المتشعبة وإحساسه بما يدور فى نفسه من عواطف وآمال مختلطة مضطربة

لا يدرى طبيعتها على وجه التحديد ، ولا يعرف كيف يكون السبيل إلى تحقيقها . والشاعر مشغول بأمر المستقبل ، تارة يراه شيئا مجهولا مطويا فى ثنايا الغيب يعشقه ويخشاه فيقول :

أسدلتُ فى محرابه الُحجبا
وسما به ما شاء حرمانى
وعشقت خلف ستوره الغيبا
ولمحت عند علاه سلطانى

ويعبر مرة أخرى عن ارتباط موقفه من الحب بموقفه من الحياة تعبيرا صريحا فيقول :

تسامى وتيهى واخطرى فى غمامة
من الوهم أن يقلع دجاها تبددى
فما عشقتك النفس إلا علالة
عن الأمل المنشود فى ظلمة الغد
وما العيش إلا خفقة قدسية
لطلعة مُشْقٍ أو لمقدم مُسعِد

ويقول مرة ثالثة :

قد تركنا اليوم للصُّم العُتاه
وتركنا الغد للغيب الضنين

وتشـــبثنا بماضـــينا فتـــاه
فى ضباب من عذاب وشجون

مرة رابعة يقول :

كل ما قد مضى فللعدم الطاغى
يزجّى وغيبنــــــا أسرارُ
وقصـــارانا بين ماض وآت
خلســـات من الحياة قصـــارُ

وتارة تغلب عليه روح التفاؤل والإيمان بالمستقبل ، وبقدرة الشباب على أن يصنع مستقبله بيده كما يشاء فيقول :

يا فتنتى لا ترهبى الغيب الخبىء ولا دجاه
هو صنع أيدينا نـكاد إذا أردنا أن نراه
غرس من الأفراح والأتراح والسلوى ثراه
نلقى به فى يومنا ونذوق من غدنا جناه
تهب الحياة لنا غـداً من مثل ما نهب الحياه

ومن خلال حديث الشاعر عن الحب يمضى إلى الشك فى كثير من القيم الاجتماعية التى تحول دون أن يحقق ما يراوده من طموح ورغبة ملحة فى السعادة والاستمتاع بالحياة . وسيرى القارئ شيئاً من هذا فى قصيدة « هم الناس » التى يصور الشاعر فيها توزعه بين ما خلقه

الناس فى نفسه من ضمير هو خلاصة القيم الاجتماعية والأخلاقية، وبين نزعته إلى التحرر والانطلاق فيقول :

توهمت أنى قد خلصت من الورى
فإذا بهمُ مما تجنّ السرائرُ
إذا قلت غابوا عن عيانى تزاحموا
علىّ من الجنح العميق وبادروا
وزفّ على قلبى الملوع ضجيجهم
وقهقه صوت من ضميرىَ ساخر
أريد وصوت الناس فىّ يريدنى
على غير ما أهوى فكيف أداور ؟
تحيرت يا ليلاى لا العقل قادر
فيسحق أهوائى ولا القلب قادر

وقد عبرت عن هذا الإحساس بعد ذلك على نحو أوضح فى قصيدة « انطلاق » و اتخذت من الراعى رمزاً للضمير الذى يلح على الشاعر أن يخضع لما تعارف الناس عليه من أوضاع ، و رمزت بالشاة إلى نفس الشاعر الثائرة فى رغبتها أن تكسر كل ما يكبلها من أغلال . وقد أفصحت عن هذا الرمز فى آخر مقطوعة من القصيدة فقلت عن تجربة الشاة مع السيل ، سيل الحياة :

خاضت إليه وزاحمت بقوى موثّقه قواه
القاع يجذبها فتهوى ثم تنشلها ذراه
فى القاع إحساس وفوق الماء إحساس سواه
بوركت يا سيل الحياة جريت فى عنف الحياه !

وقد نظمت هذه القصائد فى أواسط الحرب العالمية الثانية حين كانت جنود الحلفاء تملأ القاهرة ، والسياسة المصرية تتعثر بين ممالأة الانجليز وتملق الأمانى الوطنية ، والحرب تلقى ظلالها السود على الحياة وتثير فى نفوس الناس كثيراً من الشكوك حول مستقبل الانسانية ، والغلاء الذى لا عهد لمصر بمثله يثقل كواهل الشباب ويسدّ الطريق أمام طموحهم ، فكان من الطبيعى فى تلك الظروف القاسية أن يحس الشاعر وأمثاله بالقلق والحيرة ، ويشغلوا أنفسهم بأمر المستقبل ، ويتذبذبوا إزاءه بين اليأس والرجاء ، وبين التفاؤل والتشاؤم . ولم تكن مشكلات المجتمع قد اتضحت بعد لهؤلاء الشباب على نحو يخلق عندهم وعياً ناضجاً بها ، ويرسم لهم الطريق إلى حلها أو التغلب عليها ، كما كان تسلط المستعمر والطبقة الحاكمة يحول دون أن يقوم فى نفوس الأدباء من الشباب مثل هذا الوعى الذى يمكن أن يتجه بأدبهم دفعة واحدة إلى الواقعية الصريحة . وهكذا اتخذ الشعراء الرومانسيون من الحب ، كما قلت ، موضوعاً يعكسون عليه موقفهم من الحياة والمجتمع وإن لم يفعلوا ذلك بالطبع عن إرادة واعية ، بل بصورة تلقائية وجدانية .

على أن بذور التطور الاجتماعى والسياسى الضخم الذى طرأ على المجتمع العربى بعد الحرب كانت تتفتح حينذاك فى نفوس هؤلاء الشعراء من حين إلى آخر فى ومضات شعرية فيها كثير من الإدراك الاجتماعى والسياسى السليم . وسيرى القارئ فى قصيدة « لن أنام » مثالا لهذا اللون الواقعى ، فيه دعوة إلى الكفاح ، وإيمان بانتصار الشعب فى صراعه ليحقق لنفسه حياة حرة كريمة.

ومن مظاهر الوعى الواقعى فى هذا الديوان أن الشاعر قد ضاق فى نهايته بأحلامه الرومانسية المهوّمة ، وبما يحس به من عجز وحيرة أمام مشكلات الحياة ، وصوّر ذلك كله فى قصيدة عنوانها « وماذا بعد ؟ » جاء فى بعض مقطوعاتها ما يمكن أن يعد ثورة على المفهوم السائد حينذاك لطبيعة الشاعر كما فى قوله مثلا :

شباب تائه حائر
يوارى جده العاثر
ويهتف : هكذا الشاعر
فليت الشعر يهجرنا
وليت الفن يجفونا

وقوله :

كفى يا قلب إجفالا
فهذا العجز قد طالا

ولسنا بعد أطفالا
وما تجدى رؤى الحالم
لذى ست وعشرينا

على أننا لا ينبغى مع ذلك أن نضيق بما قد يكون فى بعض إنتاجنا الشعرى من ذاتية ونعدها انفصالا عن واقع الحياة ومشكلات المجتمع ، فإن العنصر الذاتى شىء ضرورى لكل شعر حتى ما كان منه بعيداً فى ظاهره عن شخصية الشاعر وتجاربه الخاصة . فعلى الشاعر دائماً أن ينمى شخصيته ويروض إحساسه الذاتى على إدراك الحياة من حوله بطريقته التى تميزه عن غيره من الشعراء ، وتضفى على شعره أصالة لاغنى عنها لكل فن كبير . ولن يتأتى له ذلك إلا إذا تدرج من التجربة الذاتية إلى التجارب العامة ، وحرص حتى فى تصويره للموضوعات التى لا تتصل بنفسه اتصالا مباشراً على أن يلونها بلونه الخاص الذى يدل على كيان إنسانى مستقل . ولست أعنى بذلك أن يتعمد الشاعر مخالفة الآخرين فى معتقداتهم وعواطفهم ، ولكنى أريد له أن ينتهى إلى ما يؤمن به من آراء من خلال اقتناعه الشخصى ، لا انسياقاً وراء ما قد يشيع فى بيئته من مذاهب اجتماعية أو فنية . ولا شك أنه إذا كان شاعراً ذا بصيرة صادقة ووعى اجتماعى سيتفق فى نظرته مع كثير غيره من أحرار الشعراء ،

ولكنه مع ذلك سيتناول موضوعاته من زوايا ووجهات نظر خاصة به ، فلا يجيء شعره مجرد شعارات مذهبية أو ترديدا لقوالب فنية مبتذلة . ومن الملحوظ أن معظم « الشعر الجديد » لا يحرص كثيراً على هذا الجانب الذاتى ، بل يظن أصحابه أن عليهم جميعاً واجباً محتوماً أن يعبروا عن كل مناسبة سياسية أو اجتماعية تعرض فى مجتمعهم ولو كانت بعيدة عن اهتمام بعضهم أو مستعصية على اتجاهاتهم الفنية . ولعل ذلك هو سر تلك القوالب المكررة التى اتخذها الشعر الجديد على حداثته ، وسر ما يفتقده القارئ من شخصية معظم هؤلاء الشعراء فيما يقرأ من أشعارهم فلا يكاد يتعرف على شاعر من طريقة نظرته الخاصة للأمور أو أسلوبه المعروف فى التعبير عنها . ولو أخلص هؤلاء الشعراء لأنفسهم لجاء شعرهم مصوراً لكل مظاهر بيئتهم ومشكلاتها على نحو متكامل لا تستأثر فيه المناسبات بملكاتهم جميعاً ؛ ولن تعدم الموضوعات الاجتماعية والسياسية الكبيرة فى هذه الحالة من يعالجها من الشعراء بطبيعة استعدادهم الشخصى وميولهم الخاصة . فليس من ضير أن يكون فى بعض إنتاجنا من حين إلى آخر بعض الألوان العاطفية والنظرات الذاتية ما دام هذا الإنتاج فى مجموعه متكاملا فى تناوله لجوانب الحياة المختلفة فى المجتمع الذى نعيش فيه . وعلينا أن ندرك أن لكل شاعر قدراته النفسية والفنية المتميزة التى تصرفه إلى الاهتمام بما يتناسب معها

من تجارب وموضوعات ، فلا نبنى حكمنا مثلا على شاعر عاطفى بمقدار إهماله للمشكلات الاجتماعية الكبيرة أو التفاته إليها إلا إذا أردنا أن نقيسه بغيره من الشعراء من حيث وضعهم العام . أما فى قراءتنا لشعره العاطفى فينبغى أن نحكم عليه بحسب توفيقه أو فشله فى هذه الناحية وحدها ، فلا نحاسبه على ما لم يكتب ، بل على ما كتب .

وكنت قد نشرت قصيدة « انطلاق » فى مجلة الآداب البيروتية ، وحدث أن علق الأستاذ محمود العالم فى العدد التالى على ما نشر فى ذلك العدد من شعر فقال عن تلك القصيدة :

« إن الخاصية العامة لشعر الدكتور القط أنه من حيث المضمون فاقد لهدف محدد وإن كشف عن جهد دائب للوضوح والاستقرار . ولكنه سأمان ، ملول ، قلق ، متعلق برؤيا بعيدة غائمة يتوقع منها معجزة الخلاص . وهذا مما يشيع فى شعره أحيانا مسحة تفاؤلية ولكنها غائمة كذلك . وتعتبر قصيدته « انطلاق » استقطابا لموقفه الشعرى فى حدود معرفتى به . ولقد ذكرتنى القصيدة أولا بقصة مشهورة لألفونس دوديه هى « عنزة مسيو ساجان » . أما انطلاق الدكتور القط فانطلاق طيب مستسلم ، مندفع نحو أفق ولكنه مطموس المعالم ، غير واضح القسمات . وانطلاقه يحمل جانبا من الدون كيشوتيه ، لأنه لا يستبصر بالأبعاد الموضوعية إلا من خلال اندفاعه الانفعالى الخالص . ولقد نجح

الدكتور القط فى بناء الطبيعة الخارجية التى يتحقق فيها انطلاقه ، نجح فى إشراكنا فى تجاربها البصرية والسمعية والشمية ، وفى الإحساس بهولها ؛ إلا أن رمزية الحدث حدت من مدى هذه التجارب والأحاسيس. والدكتور القط يتمسك بالصياغة التقليـدية ، بالبيتية المقفلة ، والرتابة فى عدد أبيات المقطوعة الشعرية ، مما يجعل لبلاغته طبيعة زخرفية تفقد الـكثير من صوره الرائعة حيويتها الدافقة . إن الطاقة الشعرية الـكبيرة للدكتور القط يتنازعها عاملان : الأول حيرته فى تحديد موقف إنسانى واضح ، والثانى صياغته التقريرية التى تثقلها بلاغة زخرفية . ولـكنه شاعر متمكن حقا من تعبيره الأسلوبى وصوره البلاغية التى يبرز بها وجدانه القلق الملول » وقد أجبت عن هذا النقد بمقالة نشرت فى عدد تال (مايو ١٩٥٨) من مجلة الآداب رأيت أن أثبتها هنا بنصها ، لأنها تناقش كثيرا من القضايا الأدبية الهامة فى شعرنا الحديث :

« لست أعنى بهذا المقال رداً على ما وجهه الأستاذ محمود العالم إلى شعرى من نقد بقدر ما أريد أن أتحدث عن مشكلة من مشكلات الأدب العربى المعاصر يكتب عنها النقاد كثيراً فى هذه الأيام ، ويبرزونها فى صورة تبلبل نفوس منشئى هذا الأدب ، وتسبب لهم قلقا شديداً ينحرف بأدبهم فى كثير من الأحيان عما ينبغى له من أصالة وصدق . تلك المشكلة هى غاية الأدب وما ينبغى أن يتضمنه من قيم إنسانية خاصة تخدم المجتمع

(٢٠ م)

وتدفع به إلى الأمام . ولا شك أن تضمن الأدب لهذه القيم لا يمكن أن يكون موضع خلاف بين منشئ الأدب وناقديه ، ولكن حقيقة هذه القيم هى التى تثير ذلك الخلاف الشديد . فالأستاذ العالم يرى أن تكون غاية الأدب المشاركة فى كفاح الشعب والتعبير عن مشكلاته بحيث يكون للأديب هدف « محدد » ، وهو كغيره من المتحمسين لهذه الدعوة يسقط من اعتباره تلك الألوان من الأدب التى تبدو فى ظاهرها ضعيفة الارتباط « بالمشكلات الاجتماعية » التى يبدو أنها تعبر عن تجربة ذاتية فردية .

أما عن دور الأدب فى التعبير عن مشكلات الشعب فإن ذلك مرتبط أشد الارتباط بتطور تلك المشكلات ووضعها فى البيئة والعصر اللذين يعبر عنهما الأديب . والمعروف أن المجتمع دائم التطور من نظام إلى نظام ، وفى كل مرحلة قائمة توجد بذور المرحلة التالية . وما تزال تلك البذور تنمو ، وما يزال النظام القائم يشيخ حتى ينهار انهياراً تاما ويأخذ مكانه النظام الجديد . لذلك كانت المعركة بين القديم والجديد حول القيم الاجتماعية المختلفة إيذاناً بأن التطور من مرحلة إلى أخرى قد أوشك أن ينتهى بانتصار الجديد . والأديب الموهوب يدرك إلى حد كبير حقيقة هذه المعركة ويشارك فيها وينحاز دائما إلى الجديد ، وبذلك يعجل بتطور المجتمع . ولكن إدراكه لتلك الحقيقة لا يمكن

أن يكون من الوضوح والجلاء بحيث يتمثل كل عناصر المستقبل الذى لم يولد بعد أو ينسلخ كلية عن القيم التى نشأ عليها ولا يزال يعيش بها . فأدبه فى تلك المرحلة إرهاص بالنظام الجديد ولكنه لا يمكن أن يعبر عنه تعبير الأدب الذى يولد فى ظل ذلك للنظام بعد أن يتم التطور وتتضح المفهومات الاجتماعية الجديدة . ولكى ندرك ما ينبغى أن يكون عليه الأدب العربى فى هذا العصر يجب أن نتساءل أولاً : فى أى مرحلة تطورية يمر مجتمعنا الآن ، وما نصيب النظم الاجتماعية القائمة من الشيخوخة والشباب ؟ وفى رأيى أن المجتمع العربى يعيش الآن فى ظل نظام قد شاخ منذ زمن بعيد ، ولكن شيخوخته قد امتدت امتداداً شاذاً لظروف خاصة أهمها الاستعمار عامة والتركى بوجه خاص . لذلك طالت المعركة بين القديم والجديد طولاً غير عادى ، ومرت بمراحل مختلفة كانت نتيجة كل منها تحطيم بعض القيم القديمة أو إضعافها فى نفوس الناس . ولكن القديم لم ينهزم بعد ، فما زلنا نحيا بمزيج من القيم بعضها قديم و بعضها جديد ، بل إن كثيراً من هذا الجديد لم يتأصل فى نفوسنا بعد ولم يتعد المظهر الخارجى إلى الاقتناع النفسى العميق . و إحساس الناس بمشكلاتهم لذلك لا يزال فى الغالب ضرباً من السخط المبهم والقلق الغامض ، و إن كان قد جاوز ذلك عند بعضهم لظروف اجتماعية أو ثقافية خاصة إلى درجة من الوعى والفهم تدفعهم إلى تغيير تلك الظروف التى يسخطون عليها . والأديب العر بى فرد من هذا المجتمع

يتأثر بظروفه وقيمه المختلفة ، وينعكس ذلك على ما ينشئ من أدب . لهذا كان لا بد لكل هذه العناصر أن تظهر فى أدبه إن كان يعبر تعبيرا مخلصا صادقا عن تجاربه وأحاسيسه ، وكان لا بد لأدبه أن يكون مزيجا من الرومانسية التى تمثل هذا السخط المبهم والقلق الغامض ، والواقعية التى تعبر عن الوعى الذى يلتمع فى نفس الأديب ولكنه لا يتيح له رؤية واضحة للمستقبل ، لأنه لا يستطيع كما قلنا أن يدرك إدراكا تاما عالما لم يولد بعد ، أو ينسلخ انسلاخا تاما عن القيم التى نشأ عليها ولا يزال يعيش بها . لذلك كانت دعوة النقاد إلى أدب واقعى محض ضربا من التعسف ودعوة للأدباء إلى تزييف أحاسيسهم ، واختلاق تجارب لا يحسون بها إحساسا قويا واضحا يخلصها من كل آثار الرومانسية الكامنة فى المجتمع . وكيف يستطيع الأديب أن يكتب أدبا واقعيا عن المرأة مثلا تنتفى عنه العاطفية المفرطة ، والخيال الجامح فى مجتمع ما زال الرجل فيه يذبح أخته أو أمه ذبح الشاة دفاعا عن « عرضه » ويفاخر بما فعل ؟ ! . لقد تحررت المرأة من حجابها ولكن هذا التحرر كما قلت لم يتعد عند كثير من الناس المظهر الخارجى إلى الاقتناع النفسى العميق . لذلك كان لا بد للأدب الذى يتحدث عن المرأة أن يكون مزيجا من العاطفية والواقعية . وكيف يستطيع الأديب أن يكتب أدباً واقعيا محضا عن الطبقات الكادحة وكثير من هذه الطبقات لم يحس بعد إحساسا واعيا بمشكلاته ، ولم يندفع بعد إلى كفاح منظم فى سبيل التحرر.

بل كيف يستطيع الأديب أن يفعل ذلك وهو لم يشارك فى مثل هذا الكفاح مشاركة جدية تفرض موضوعاته فرضا على مشاعره .

وليس من ضير على الأدب العربى أن يظل محتفظاً بشىء من الرومانسية ما دامت تلك الرومانسية تعبيراً صادقاً عن جانب مهم من نفوس منشئيه ومتذوقيه . بل إن إغفال ذلك خطر على الأدب فى هذه المرحلة ، لأنه يغلق نفوس الناس دونه ما داموا لا يزالون يحيون بعواطفهم إلى حد كبير ، فإذا أراد الأديب أن يبث فى أدبه دعوة واقعية فى مثل تلك الظروف فلا بد أن يغلفها بشىء من العاطفية يستجيب لها قارئوه ، وهو إن كان صادقاً مع نفسه لا يستطيع أن يفعل غير ذلك ، لأنه هو أيضاً فرد من المجتمع يعيش بقيمه ومفاهيمه . وكما « لم يكن الأدب الرومانسى فى القرن التاسع عشر أدباً رجعياً ، بل كان فى جوانب كثيرة منه أدباً ثورياً بكل ما فى هذه الكلمة من معنى » كما يقول الأستاذ العالم ، فكذلك يكون الجانب الرومانسى الصحيح من أدبنا المعاصر . و إنكارنا لبعضه إذن لا ينبغى أن يقوم على مجرد أنه رومانسى ، بل لأنه يتسم بصفات تجعل رومانسيته غير صالحة . على أن الواقعية نفسها تختلف درجاتها بحسب إيغال المجتمع فى التطور واستقرار قيمه الجديدة . فعندما كتب «فلوبير» رائد الواقعية الفرنسية فى القصة روايته « مدام بوفارى » قامت حولها ضجة أدبية كبرى ، فقد تحدث فى صراحة وجدية عن الخيانة الزوجية

ووصف وصفاً مطولا انتحار الزوجة وآثار السم فى جسدها وما عانته من آلام بشعة قبـل موتها ، وعدّ ذلك منه واقعية جريئة تخرج عما ينبغى للأدب من « لياقة » . وكذلك فعل « إبسن » رائد المسرح الواقعى حين كتب مسرحيته « بيت الدمية » و « الأشباح » ، وكان هجر بطلة المسرحية الأولى لزوجها وأولادها مثاراً للجدل والاستنكار ، كما كان كذلك حديث المؤلف فى صراحة عن الأمراض التناسلية الوراثية فى المسرحية الثانية . ولـكننا الآن على ضوء ما انتهت إليه الواقعية من تطور لا نـكاد نعد هذه الأعمال أدباً واقعياً إلا من حيث وضعها التاريخى فى خط التطور الأدبى . وشتان بين واقعية « فلوبير » « وإبسن » وواقعية الأدب الأوروبى فى هذا العصر . ذلك لأن المجتمع الجديد قد اتضحت مشكلاته و بانت معالمه فانعكس ذلك على أدبه وفنه.

ودعوة نقادنا إلى الواقعية الصارمة الملحة ، فيما يخيل إلىّ ، مظهر لاقتناع عقلى ثقافى قبل أن يكون إيماناً وجـدانياً عميقاً . وهو فى أغلب الأحيان تأثر بما يقرأون من الأدب الأوربى الواقعى الذى يعبر عن مجتمعات سبقتنا شوطاً كبيرا فى التطور . و يظهر ذلك بوضوح حين يتجاوزون النظريات إلى التطبيق ، فتراهم فى أغلب الأحيان يحكمون على النصوص الأدبية بعقولهم فيخلطون بين الجيد والردىء حسب ما يمليه إقتناعهم الذهنى .

وقد أحدث الإلحاح فى هذه الدعوة ، كما قلت فى مطلع المقال، بلبلة خطيرة فى نفوس الأدباء جعلت كثيراً منهم يتنكرون لأنفسهم ويتكلفون التعبير عن تجارب لم يعانوها ، ويحتذون نماذج فنية لايحسنون الكتابة فيها . فقد أصبح الحديث عن القرية مثلاً شائعاً فى الشعر الحديث . ولكن هؤلاء الشعراء لا يرون فى القرية عن عمد إلا « الشيخة الضريرة تدب على العصا » ولا يسمعون إلا « أحاديث الجدة العجوز » إلى آخر تلك الصور . وإن هم كتبوا عن المدينة فليس فيها إلا سعال البغايا والمصدورين وألوان الحرمان والتشرد . وهم يكتبون عن الحرب قصائد أغلبها من صنع خيالهم كموضوعات الإنشاء التى يطلب فيها إلى التلميذ أن يصف « يتيما فى يوم عيد » . ولو قد ترك هؤلاء الشعراء أنفسهم على سجيتها ، واستجابوا لوحى تجاربهم الخاصة ، لتأتى لهم من ذلك شعر فيه مثل هذه العناصر الإنسانية مع صدق التعبير وقوة الإحساس والبراءة من التكلف . فليس الأدب الذى يصور البؤس والظلم والتعاسة هو وحده الأدب التقدمى ، بل إن كثيراً من ألوان الأدب التى ترسم ما فى الحياة من جمال وأمل تنتهى إلى هذه الصفة كذلك بما تبثه فى نفوس متلقيها من معانى التفاؤل والقوة والتطلع إلى الاستمتاع بهذا الجمال . ولن يشعر إنسان ببؤسه وفاقته إلا إذا أوتى الحس الذى يدرك قيمة السعادة والرفاهية إدراكا يدفعه إلى الانتقاض على بؤسه وفاقته ، كما أن تذوق الجمال فى

ذاته متعة نفسية كبرى تنفى عن الحياة ما فيها من سأم وملال ، وتسمو بإنسانية الفرد فتجعله أسرع استجابة لنداء الخير ، وأكثر تطلعاً إلى الرقى والتقدم . وليس معنى ذلك أننا نغض من قدر الأدب الذى يعبر عن البؤس والمظالم ، أو ننكر دوره الكبير فى نهضة المجتمع ، ولكننا نريده أدباً صادقاً من وحى تجارب الأديب و بيئته .

وعلى ضوء ماذكرت أحب أن أناقش رأى الأستاذ العالم فى شعرى وهو يبدأ بقوله : « إن الخاصية العامة لشعر الدكتور القط أنه من حيث المضمون فاقد لهدف محدد و إن كشف عن جهددائب للوضوح والاستقرار. ولكنه سأمان ، ملول ، قلق متعلق ، دائما برؤيا بعيدة يتوقع منها معجزة الخلاص . وهذا ما يشيع فى شعره أحيانا مسحة تفاؤلية ولكنها غائمة كذلك » . أما إن شعرى فاقد لهدف محدد فهذا صحيح ، إن كان المراد أن يلزم الشعر خطاً ضيقاً مستقيما لا يحيد عنه ؛ فالنفس البشرية ليست من الآلية بحيث تسير قدما دون التواء أو تعرج أو نظرة إلى وراء أو عن يمين أو شمال ، وهى دائما تكتسب تجارب جديدة وتواجه مشكلات متعددة ، فهى لذلك دائمة التطور والتجدد . وما أظن أحداً من الناس يستطيع أن يحدد هدفه من الحياة تحديداً دقيقاً جامداً غير قابل للتغير . والأستاذ العالم نفسه يقول : « وليس معنى هذا أن كل شاعر له اتجاه عام جامد ، بل إنه يخضع لمنحنيات متعددة من التغير على المدى

الطويل من حياته التعبيرية » . ولست أدرى بعد قوله هذا : لماذا يطلب أن يكون لى هدف « محدد » ؟!. ومع ذلك فإن لى هدفاً و إن لم يكن جامداً . وفى شعرى تفاؤل ولكنه غير غائم . وكيف يكون تفاؤلا غائماً مثل قولى من قصيدة « عرّافة » .

يا فتنتى لا ترهبى الغيب الخبىء ولا دجاه
هو صنع أيدينا نكاد إذا أردنا أن نراه
غرس ، من الأفراح والأتراح والسلوى ثراه
نلقى به فى يومنا ونذوق من غدنا جناه
تهب الحياة لنا غداً من مثل مانهب الحياه .

وكيف يكون شعرا لاهدف له مثل قولى من قصيدة « لن أنام » :

ها قد بلغتم قمة قد كان صعباً مرتقاها
شبوا على أعلى البروج لهيبها وارعوا لظاها
مدوا بأيديكم لمن فى السفح يصعد فى حماها
وتجمعوا من حولها دنيا يعذبها طواها
تلقى على أكنافها من غير مسألة قراها
شبعاً ومأمنة وعزة أنفس تعلى الجباها

ولعل كلمة قصيرة عن القصيدة الأولى يمكن أن تبين حقيقة الخلاف بينى و بين الأستاذ العالم ، فهو فيما يخيل إلى غير راض عنها ، لأنها لم

ترتبط بدعوة جماعية شاملة ، بل كانت حديثا إلى فتاة تستطلع غيبها في بقية شرابها . لذلك كان تفاؤلها في رأيه تفاؤلا غائما . أما أنا فقد اتخذت موضوع الفتاة وسيلة لـكي أصور في القصيدة جوا خاصا رأيت فيه عاطفة ينساق القارئ معها إلى تلقي هذا التفاؤل . والفن كما هو معروف يعتمد على الايحاء لا على القول الذهني المباشر . ولن ينفذ الإيحاء إلى النفس إلا إذا كانت في حالة استغراق يعدها لتلقي ذلك الايحاء ، وهذه هي الرومانسية المتقدمة التي عنيتها في صدر المقال ، والتي تعبر تعبيرا صادقا عن المرحلة الاجتماعية التي نجتازها . و يتصل بذلك مايقوله عن شعري من أنه « سأمان ملول قلق متعلق برؤيا غائمة يتوقع منها معجزة الخلاص » وأنا سعيد ، إذ استطعت أن أنقل هذا الإحساس إلى الأستاذ العالم فإني بذلك أعبر عن تجربة العصر والبيئة التي أعيش فيهما . فلست وحدي القلق الملول ، بل إن ملايين من الشباب العربي يعانون هذه التجربة ويحسون بقلق غامض لا يدركون كنهه لما في حياتهم من دواعي الـكبت والفشل ، ولـكني لم أكتف بمجرد التعبير عن هذا القلق ، بل « تعلقت برؤيا غائمة أتوقع منها معجزة الخلاص » . وتلك أول مرحلة في سبيل التحول من الرؤيا الغائمة إلى الرؤية الصادقة المبصرة إذا تمشينا مع التطور الطبيعي للمجتمع في كفاحه نحو مستقبل أفضل .

والأستاذ العالم معجب أشد الإعجاب بمنهج الشعر الحديث الذي

« لا يتمسك بالصياغة التقليدية ، بالبيتة المقفلة والرتابة فى عدد أبيات المقطوعة» وأحب أن أصارحه بأنى لا أقل إعجاباً بالجيد من هذا الشعر، ولكن لا أراه الوسيلة الوحيدة للتعبير الشعرى الموفق، ولا أرفض ماعداه من الشعر لمجرد البيتية المقفلة والرتابة فى عدد أبيات المقطوعة . والشعر الجديد مازال باعتراف الأستاذ العالم يمر بدور التجربة وهو « ضعيف فى التعبير والصياغة» كما يقول ، وهذا أمر خطير . فالأستاذ العالم يريد أن « يكسر رقبة البلاغة العربية » التى تعنى فى الغالب بالصياغة والزخرف . لكن البلاغة الجديدة مع ذلك تستحق « كسر رقبتها» هى الأخرى . فهى لم تزد على أن نقلت العناية من الصياغة إلى المضمون ففعلت ما كانت تفعله البلاغة القديمة من فصل غير طبيعى بين اللفظ والمعنى . والأدب ، كما يقرر الأستاذ العالم — حين يتحدث عن النظريات دون التطبيق — كل متماسك لا يتجزأ: إما أن يكون أدباً أو لا يكون . والشعر الذى يمكن أن نصفه بأنه « ضعيف فى الصياغة والتعبير» لا يمكن أن يعد شعراً . فليس المراد من الشعر مجرد تسجيل للأفكار ، وإنما يراد به نقل تجربة الفنان إلى قارئه بحيث تنفذ إلى نفسه فينفعل بها وتستقر فى وجدانه فتؤثر على نظرته إلى الحياة وإدراكه للأشياء . وفرحة النقاد الذين يدعون دعوة الأستاذ العالم بذلك الشعر الفاشل وإن عبر عن مضمون إنسانى فرحة زائفة . فما كان الفن يوماً مجرد عرض للحقائق والأفكار . وقد يمكن أن ندرس هذا

الشعر على أنه مقدمات لتطور فنى جديد ، ولـكن بعد أن يتم هذا التطور و يتوفر لدينا من النماذج الجديدة الناجحة قدر كبير تـكون دراسة تلك المقدمات معه تأريخاً لذلك التطور وليست تمجيداً للشعر الفاشل فى دور الانتقال . أما أن يتجاوز إعجاب الأستاذ العالم بهذا الشعر حداً يرفض معه كل ما يكتب الشعراء من شعر يتسم بالبيتية المغلقة والرتابة فى عدد أبيات المقطوعة فتعنت لا نقره . إن هذه الأطر الفنية التى لا ترضى الأستاذ العالم لم تتعد حياتها فى الشعر العربى أكثر من ثلاثين عاماً بعد معركة ضخمة بين القديم والجديد لا يزال أصحابها أحياء بيننا ، وما زال كثير من أنصار المدرسة الـكلاسيكية المنهزمة يكتبون شعرهم بالأسلوب القديم غير معترفين بما حدث من تطور ، بل إن قدراً كبيراً جداً من الشعر الأوربى — حتى عند أكثر الشعراء تجديداً — ما زال يكتب فى البيتية المغلقة ونظام المقطوعة . ولست أدرى كيف تـكون البيتية المغلقة والرتابة فى عدد أبيات المقطوعة داعياً إلى الزخرف . أفهم أن يكون ذلك فى بعض الأحيان حائلاً دون التعبير المتكامل إذا لم يكن الشاعر متمكناً من لغته ، صادقاً فى أدائه . أما أن يكون سبيلاً إلى الزخرف فأمر غير مفهوم . على أن الزخرف فى ذاته ليس عيباً إذا كان هدفه إبراز إحساس الشاعر فى صورة قوية مؤثرة . ونحن نلجأ إليه فى حديثنا العادى — غير واعين — كلما انفعلنا بما نقول أوأردنا تأكيد مايجول فى نفوسنا من خواطر . أما إذا كان الزخرف تغطية لضحالة

الاحساس أو تفاهة الموضوع فذلك عيب لاشك فيه . والبساطة مع جمالها لا تصلح للتعبير عن كل الأحاسيس والصور ، فهناك موضوعات لا بد للشاعر أن يستعين فيها بشيء من الخيال الجامح والتعبير المنمق ليبرزها في أسلوب قوى مؤثر . وفى رأيى أن أصحاب المدرسة الجديدة من الشعراء يغلون غلوا كبيرا فى هذه البساطة فيجيء شعرهم فى كثير من الأحيان غير قادر على النفاذ والتأثير . ويخيل إلى أن الدعوة إلى هذه البساطة المفرطة وليدة الرغبة فى أن يكون الشعر المكافح مفهوماً عند أكبر عدد من القراء . وهى رغبة نحمدها لهؤلاء النقاد ولكن الشاعر مع ذلك لا حيلة له فى هذه المشكلة ما دام يكتب بلغة لا يحسنها كثير من القراء . فهو لكى يكتب شعراً ناجحاً لابد أن يستغل كل إمكانيات اللغة التى يكتب بها ، وموهبته وثقافته هما اللتان تحددان موقفه من بعض الأساليب والألفاظ » .

وفى مقام الإشارة إلى لغة الشعر أحب أن أعتذر إلى القارئ عما سيصادفه فى هذا الديوان من ألفاظ قليلة تعتبر الآن غريبة شيئا ما على الشعر الحديث ، وقد لا يفهمها من لم يتثقف ثقافة عميقة فى الشعر العربى القديم . من ذلك قولى « وأُسى أرق حديثها جرح » والأُسى جمع أسوة أى ما يتأسى به المرء . ومنها كلمة « مَهْمَه » التى وردت فى قصيدة « فى طريق الحياة » ومعناها الصحراء . ولعل أوضح مثل لهذا قولى فى مطلع تلك القصيدة :

فى طريق من لَقَى الأنضاء والصرعى صُواه

والصوى علامات الطريق ، ولَقى الأنضاء أى الأجساد المطروحة الملقاة فى الطريق بعد أن سقط أصحابها من الإعياء والجهد .

وبعد ، فما قصدت بهذه المقدمة أن أدافع عن شعرى ، فإنى أعلم أن إحساس القارئ وفكره هما المقياس الأوحد فى النهاية للحكم على العمل الفنى ، ولن تجدى المقدمات إلا فى بيان بعض جوانب العمل التى قد تعين القارئ على هذا الحكم ؛ وإنما أردت بها أن أناقش بعض القضايا الهامة التى تثور فى هذه الأيام حول القديم والجديد . وأرجو ألا أكون فى هذه المناقشة قد اتخذت من الشعر الجديد موقفا يبلغ حد التعصب ، فليس أسوأ من أن يقف الناقد فى سبيل التجديد والتطور ، أو يعوق خطا العاملين على أن يلحق شعرنا بركب الشعر العالمى ، فيشارك مشاركة فعالة فى نهضة المجتمع ، ويساير روح الحياة الحديثة فى أسلوبه ومضمونه . وما اعتقدت يوما أن الشعر يمكن أن يجمد أبد الدهر على قوالب معينة لا يتعداها . وإذا كان ذلك قد حدث بالفعل للشعر العربى أمدا طويلا فلأن المجتمع العربى كان حينذاك مجتمعا راكدا يخضع لنظم اجتماعية واقتصادية ثابتة لا يكاد يعتريها من التغير إلا أيسره مما يتمثل فى عدل حاكم أو ظلمه ، أو زوال أسرة حاكمة وقيام أخرى ، أو غير هذا من مظاهر لا تمس صميم الحياة . وحين نفض ذلك المجتمع عنه غبار الركود بدأ الأدب يخطو خطى واسعة سريعة نحو التقدم ، فظهرت فيه ألوان جديدة لم يعرفها من قبل كالمسرحية والرواية ،

وتطورت الأشكال القديمة من نثر وشعر فى هذه الفترة القصيرة تطورا لا يمكن أن يقاس إليه ما تم إبان تلك العصور الطويلة كلها . والناظر فى أمر النثر العربى الحديث مثلا يرى أنه قد بعد بعدا كبيرا عن الأساليب التقليدية القديمة حتى ليشك المرء فى قدرة القدماء على فهم بعضه لو أتيح لهم أن يقرءوه . ومع ذلك فنحن لا ننكر عليه هذا التطور ، ولا نرميه بالخروج على أساليب اللغة العربية وتقاليدها ، ولا نقف منه موقفنا الحذر من الشعر ، لأننا نمارسه كل يوم فى حياتنا العملية فنحس بضرورة ما ندخله عليه من تجديد ، بل لا نكاد نشعر قط بهذا التجديد وهو يتم بطريقة تلقائية غير واعية فى معظم الأحيان .

أما الشعر فإننا ننظر إليه على أنه قوالب فنية محضة ولا يمارس نظمه إلا القليلون ، ولا نقرؤه إلا بين حين وآخر بأذواق قد نشئت فى المدارس على الشعر القديم وحده . ومن هنا لا نتقبل فى يسر ما يطرأ عليه من تطور ، ونقيسه دائما إلى ما نعتقد أنه الصورة النهائية الحاسمة للشعر العربى . وتتضح هذه الحقيقة حين نذكر أن الأشكال الحديثة للقصيدة العربية ، تلك التى تعتمد على المقطوعة والقافية المتغيرة ، قد أصبحت الآن أشكالا مقررة معترفا بها ، يدافع عنها خصوم « الشعر الجديد » باعتبارها ممثلة للشعر القديم ، مع أنها فى الحقيقة كانت منذ أمد قصير لا يزيد على أربعين عاما تعدّ ثورة على القديم ، ولم تخرج إلى

الوجود إلاّ بعد معركة عنيفة طويلة بين القديم والجديد . وإذا كانت قد استطاعت أن تأخذ مكان الشعر التقليدى رغم تأصله فى حضارتنا ونفوسنا تأصلا عميقا فليس ما يمنع أن يخلفها هى نفسها بعد حين جديد آخر .

ومع ذلك فإن هذا التطور ينبغى أن يتم على نحو طبيعى صالح ، فلا تنقطع فيه الصلة فجأة بين القديم والحديث ، لأن حياتنا فى كثير من مظاهرها لا تزال وثيقة الصلة بمراحلها التاريخية السابقة . ولا يجوز لنا أن نمجد أى تطور مهما يكن شأنه ، بل لا بد أن يكون قائما على أسس سليمة تضمن له البقاء والنضج .

وإنى أرجو أن يجد بعض الناس فى هذا الديوان تصويرا صادقا لعواطفهم إن كانوا لا يزالون يمرون بمثل تلك المرحلة العاطفية التى كنت أجتازها حين نظمته ، أما الآخرون فإنى أرجو أن يروا فيه تعبيرا عن فترة خاصة من حياة الشاعر ، وطور معين من أطوار شعرنا العربى الحديث .؟

القاهرة فى ١٠ ديسمبر ١٩٥٨ — عبد القادر القط

قَلق

أىّ إحساس بصدرى يتنزّى

أىّ أخلاطٍ بنفسى تضطربْ !

ومعانٍ أوسعت روحىَ وخزا

وأمانٍ كالأتون الملتهب !

* * *

ثائراً يزفرُ من تحت الدّخانْ

لستُ أدرى ما الذى يوقد نارَهْ

غيرَ أنّى أكتويه كلّ آنْ

وأذكّى من دم القلب أواره

* * *

لستُ أدريه . . . ولكنى أحسّهْ

فى سياطٍ من حنينٍ قانياتْ

وبجنبى مستطار طال حدسُهْ :

أى ماض يشتهيه . . أى آت ؟

* * *

أى شيء فى حياتى قد فقدتُهْ ؟

أى معنى من زمانى أبتغيهْ

كلما خُيِّل لى أنى وجدته

قذف التنّورُ بالنيران فيه

* * *

كل شيء فى حياتى كالضباب

لست أدرى ما مداه إن قصدتُهْ

وطريقى ذو دروب وشِعاب

يقتضينى كلُّ درب لِمْ سلكته

إن أردتُ المجْــدَ طافت بى رؤاه

ألفُ رؤيا يغتــلى فيهنَّ ريبى

أو أردتُ الحبّ أوْلَتْنى دُمــاه

حــــيرةً تغتال ما يهفو بقلبى

***

ليس مجْــدًا أو غراما ما أريدْ

ليت شـــعرى أىّ شىء أفتقدْ ؟

أى شىء ! كلُّ شىء فى الوجود

آه لو جُمِّــــع يومًا فاتَّحَدْ !

***

ظَمأٌ يشــــوى لهاتى حــرُّه

فإذا قاربتُ ينبوعًا خَمَــــدْ

ونداء من رغابى ســــحرُه

كلمـــا ملتُ إليه لم أجِــدْ

***

ها هنـــا رَوْحٌ ولـكنِّي مَلُولْ
ها هنـــا راحٌ ولـكنى قلقْ
كلٌّ قصرٍ تحته سُـــفْعُ الطُّلول
كلٌّ صبح فيه أســداف الغسَقْ

* * *

سأَمٌ ينفث فى الـكون الســأم
ليس يرضى عن مكان أو زمنْ
ينشد الجِـــدَّة حتى فى الظّلَمْ
ليس يعنيه قبيـــح أو حسن

* * *

أىّ شىء فى حياتى قد فقدتُهْ ؟
أى معنًى من زمـــانى أبتغيه !
كلّما خُيِّـــل لى أنى وجدتُهْ
قذف التَّنُّورُ بالنـــيران فيـهْ

فى طريق الحياة

فى طريقٍ من لَقَى الأنضاء والصرعَى صُواهْ
وفضاءٌ لم تعانق أرضَه يوماً سماه
مُفْرَغاً ترتجع الأبصارُ حسرَى عن مداه
أضرب الأرضَ طليحاً تحتَ أعباء الحياه
وشبابٍ لم يمتَّع بالشبابْ

***

أغتدى فى زحمة الأطماع مَشْدُوهَ الرجاءْ
وأرودُ الودَّ فى دنيا من الودِّ خلاء
مفردَ القلب . . . وللقلب حنين واشتهاء
ظامئ الروح . . . وللنبع بأسماعى غناء
من وراء الغيب... من خلف الحجاب

أغتدى فى مَهْمَــــه الدنيا وما لى من رفيقْ
غيرَ روحٍ سادر النجـــــوى وقلبٍ لا يفيق
كلمــــا أوغلتُ فى القفر تراءتْ لى بروق
وامضـــاتٌ بأمانىَّ كأطيـــــاف الشروق
بعد ليــــل مدلهمٍ وضـــباب

* * *

طالمـا أدركتُ أن البرق خلّاب جهـامْ
ورأيتُ القطرَ محبـــــوسا بأطباق الغمام
غيرَ أنى كلمـــــا راودَ أجفانى المنـــــام
قذفت بى ظامئـــــاتٌ من رغابى للأمام
ولقد يُنجى من اليــأس السراب

* * *

أتخطى الصخر . . . لا عزماً ولـكنى أسيرْ

وعلى السائر أن يمضى وإن شق العبور
لم أعد أسأل ما الجدوى ولا أين المصير
ما سؤالى ؟ ! وفؤاد القفر مسلوب الضمير
ليس يصغى لسؤال أو جواب

* * *

فى طريقى كم تراءت لى جنان وادعاتْ
مثقلات الدّوح بالأثمار شتى ناضجات
يرفل الظل بها فى مسرح جمٍّ الشيات
ويميس النهر فى أعطافها رحب الجهات
بين أفوافٍ وألفافٍ وغاب

* * *

كم رأت عينى وكم قد حنَّ للروضات قلبى
فتركتُ الدربَ مهجورا وخلتُ الروض دربى

وهَفَتْ للعشب أقدامى وقال الجهـد : حسبي
ورفعتُ الـكفَّ لله . . . أقضى حق ربى
من ثنــاء وصلاة ومتــاب

* * *

وإذا بالروض قد حَفَّت به جنـــدٌ عُتاه
لم يبالوا حرمة الحمـــد ولا قدس الصلاه
صاح منهم صائح : ردوا عن الروض الجُناه
أغَريبٌ مِلْـكُنا المحبوبُ من بعض مناه ؟ !
اشهروا البِيضَ وهزوا للحراب !

* * *

فَهَوَتْ من حضرة الربِّ إلى الأرض يداىْ
وتلاشَى حمـــدىَ المبتـــورُ وانجابتْ رُؤاىْ
قلتُ : هـدى الحربُ يا قوم أُعِدَّتْ لسواىْ

أنا منكم . طال فى البيد ثَوائى وسُراىْ
كيف تلقون أخاكم كالذئاب ؟ !

* * *

قد صحبتُ الليل . . . والليل على البيد رهيبْ !
ونهاراً للحصَى من قيظه العاتى وَجِيب
منحتنى البيدُ بلواها وَأَخْفَتْ ما يطيب
من رُوَاء الفجر فى الشرق ومن سحر الغروب
لم أنل منها سوى قبض التراب !

* * *

يا صحابى روضكم ريان ممتد الظلال
لن تضيق اليوم بى سرحاتُه الفِيحُ الطوال
فدعونى يلتئم جرحى . . . ولى بعد ارتحال
لن أقيم الدهر فيه وبجنبىَّ ملال
يَحْزُ القلبَ إلى هذى الشعاب !

ياصحابى ! . . . أيها الواغل لسنا من صحابك

اسْعَ فى قفرك ما شئتَ وهوِّم فى شعابك

نحن من أصلاب مجدٍ . . امضِ لسنا من ترابك

وإذا ما مسّكَ الضرُّ فكفكف من رغابك

واترك الدنيـــا لأرباب الرغاب

* * *

غَشِيَ الروضَ سكونٌ راكدُ الأغوار أخرسْ

لا الغديرُ الوادع انســـاب ولا الزهر تنفّسْ

ودجا الظلُّ فخلتُ الظلَّ فى وجهيَ يعبس

وجـرى فى وهميَ المخبول أن الريحَ تهمس :

لستَ يا أفّاقُ أهـــلاً للصحاب

* * *

قلتُ يا أقداميَ الحسرَى إلى دربكِ عُودى

وتأنَّى يا لهــاتى من خيالى بالوعـــود

واصبرى للظمأِ القــاتل يغتال نشــيدى

فغداً فى روضتى العــذراء يَحْلُو لى وُرودى

وأُرَوِّيكِ من الشُّهـــدِ المذاب

* * *

روضتى العذراء فى الرَّبوة لم يُطْمَث ثراهــا

خلف هذى القفــرةِ الجرداء قد طاب جناها

ضلَّ عنها الناسُ واستخفى عن الناس شــذاها

قلبىَ العـــامرُ بالأيمان يومًا ســـيراها

وســـيلقاها وإن طال الغياب

أنتِ كالناس!

جفَّ الغديرُ وصوَّح الزهرُ
فالآن لا سَكَنٌ ولا رَوْحُ
لم يبق إلا الفكرُ والشعر
وأسًى أرقُّ حديثها جُرْحُ

* * *

لم يبق إلا لوعةُ الذكرى
وحطام آمالٍ وأحلامِ
ومنـاسر ومخالب حيرى
بين الرجاء وقلبيَ الدامي

* * *

وخيالُك النشوانُ بالأثم

تتضاحك الأقـــدار فى فيـهِ
سكرى بمـا أهرقتِ من وهمى
وحطمتِ من قَدحٍ أفـــدّيه

* * *

ومثالُكِ المرســومُ فى خَـلَدى
خــزيان يرعش من مهـاويك
يا ويحـه ! أَفْنَيتُ فيـه يدى
ومحـــاه رجسٌ من أياديك !

* * *

ســـوّيتُه روحًا أقدّســـهُ
وتراه رَجْـــعَ قرارهـا نفسى
أشـــتاقه وأهاب ألمســـهُ
وأريده فيخـــوننى حِسِّى !

* * *

أسدلتُ في محرابه الْحُجُبـــــا
وسمـــا به ما شـــاء حرماني
وعشقتُ خلف سُـــتورهِ الغيبا
ولمحتُ عنـــد علاه سلطاني

* * *

قد قلتُ حـين طلعتِ في أفقي
بيضاء يغمـــر نورُكِ الأُفُقَـا
قد غاب ليـلُ الشجو عن طرقي
وبدا الصباحُ يضاحـك الطرقا

* * *

ألقيتُ أحـــزاني إلى أمسي
وزهـا بأول بســـمةٍ قلبي
ونســـيتُ أول مرةٍ نفسي

وهجــرتُ آلامى إلى الحبِّ

* * *

وهجـــرتُ آلامى إلى أُفُقٍ
يَنْفِي الهمــومَ وينفح البشرا
باكرتُه بجنــاحٍ منطلقٍ
ورفعتُ فيــه للهوى قصرا

* * *

قصرٌ تُشارف ساحَــه القِمَمُ
سِحْرٌ وكلُّ فتُونِه أنتِ ! .
أن تسـكنى تتهامس النغمُ
ويموج فيــه اللحنُ إن سرتِ

* * *

تتخطرين وثوبُـك التــبرِى

بادى الهُيام بقــدّك العاجى
ألوانُه إشراقــهُ الفجــرِ
وحَفيفه خفقــاتُ أمْــواجِ

* * *

تسرى بأنهــارٍ مُســبِّحةٍ
تهفو إليــك برُوح مشــتاقِ
سلسالُهنَّ رفيــفُ أجنحــةٍ
وتسيمُهنَّ حـــديثُ عُشَّــاقِ

* * *

وعلى الضفاف مُدَلَّهٌ صــادى
يأبَى الوُرودَ لغــير سُــقياكِ
شــفتاكِ أشهى خمــرةِ الوادى
ونَمــيرُه الرقراقُ نجــواكِ !

* * *

أهفو لصوت جمـــالك الدّاعى
وأهابُ صمْتَ جــلالك السامى
فإذا أجبتُ نــــداء أطماعى
تتراعَشُ الأســـتارُ قُدّامى !

* * *

وطلعتِ فالتمعتْ بك الدنيـــا
لَمْعَ الشعاع تسوقه الظُّـــلَمُ
فجْرٌ كَذُوبُ النـــور لا يحيا
ومَعِينُــه الديجورُ والعـــدَمُ

* * *

من أنتِ ؟ ! ما أنت التى منحتْ
كابى الرّماد تألُّقَ المـــاسِ
من أنتِ ؟ ! إنَّ الحُجْبَ قد رُفِعَتْ
واحسرتا . . أفأنتِ كالنـاس !

* * *

ملَّيتُ منكِ العــــينَ والسمْعا
وســـلوتُ عشقَ الغيب والسّترِ
فإذا الرُّواء غــــلالة الأفعَى
وإذا الصــــفاء رَبيئـةُ الشر

* * *

شــفتاكِ لا ماءٌ ولا خَمْـــــرُ
أسطورتان رَواهمــــا وهمى !
وخُطـــاكِ لا عاجٌ ولا تــبرُ
ويح الخيال . . . وبُعْدَ ما يرمى !

* * *

طالعتُ منـــه مصرعَ النَّسْرِ
وشهدتُ فتْكَ الرجسِ بالقُـدْسِ
فَضَمَمْتُ أحزانى إلى صــدرى
ورجعتُ مغـــلوباً إلى نفسى

همس الناس

أليلاىَ هزتنى للقيـاك خفقةٌ
تثور بروحى كلما طاب سامرُ
إذا شعَّبَ القوم الحديثَ وهَوَّموا
بكل طريق زيّنته الخواطـــر
ذكرتُ حديثاً منكِ تندَى لحونُه
معطرة الأصداء ، والحسن عاطر
ورحتُ أجيب الذكريات فأسكتت
لهاتىَ ذكرى ما تزال تخامر
إذا ساوَرَ التحنانُ قلبى تململت
أفاعٍ من الشكِّ الدفين تُساور !
أليلاىَ هذا مَوْطنُ العذر فاسمعى

لمستوحشٍ طَمَّتْ عليه الدياجر :
عرفتُكِ والآلام تفرى حُشاشتى
وبينى وبين العاديات أواصر
وحَوْلى من الصمت الكئيب مفازَةٌ
تعاوَى بها ماضٍ وزجر حاضر !
عرفتُكِ ممْـراحَ الأغاريد طلقة
كما عاد موفوراً إلى العشّ طائر
لديكِ ثوى من كلّ شىء نقيضُه
يناصر كلٌّ ضـدَّه ويؤازر
عليكِ من الأضواء أبيضُ فاتنٌ
وفيكِ من الأظلال أسمَرُ آسر
تقدَّس فيكِ الحسنُ والحسنُ طاهرٌ
وعربَدَ فيك الدَّلُّ والدلُّ فاجر !
عرفتُكِ فانجابت عن القلب غُمَّةٌ

أضاء دياجيها خيـــالٌ مغامرُ

جَسورٌ على الآفاق . . ما طاف حالمٌ

ببعض مجاليـــه ولا حام كاسر

ملأتِ شغافَ النفس حتى كأنما

إليكِ طواها عن دُنا الناس ساحر

فأنتِ لها فى مجمع الخلق شرعة

تضاءل عنهـــا ما تلُوكُ الضمائر

رضـــاكِ هو الحِلُّ الذى تستبينه

وإن تسخطى فالحق خزيانُ صاغر !

تجلَّتْ لروحى منك دنيا جـديدةٌ

وأُســـــدل دُونَ العاديات ستائر

وخَلَّيتُ للمـاضى الشـقىِّ كآبتى

ورحتُ إلى يومى الســعيد أبادر

إذا استبقت يوماً لأفقى غمـــامة

أو ابتــدرت يوماً إلىَّ البوادر

فذكرُكِ فى الأحزان بُشرى وفرحةٌ

وفى التِّيهِ والديجور سمع وناظر . . .

* * *

عشقتكِ لم أحفل بمـا قال قائل

ولم تستثرنى عن هواكِ الزواجر

وما اعتقدتك النفس يوما حبيسة

لنسك به تلغو العقـول القواصر

وكيف ؟ وللحسن الفتىِّ رغائبٌ

حَواكمُ فى الغيد الحسان قوادر

يحمحم منهـا ثائر الرأس جامح

ويهدر منها رائع الموج زاخر ! . .

ولكنَّ صوتاً بين جنبىَّ لهم أزَلْ

أخافِتُ بالأوهام . . وهو يجاهر :

أَتَعشق من دنيـــاك غِرًّا أثيمة

تُراوحها لذّاتُها وتُباكر ؟ !

تَصَامَمْتُ عنه بعض حين فراعنى

بصيحةِ عاوٍ مزَّقَتْه البــواتر

تمطَّى فأنَّتْ فى دمائى جراحُه

وثار فقرَّت فى عروقى الأظافر !

توهَّمتُ أنى قد خلصتُ من الورى

فإذْ بهمُ ممـــا تُجنُّ السرائر

إذا قلتُ غابوا عن عِيانى تزاحموا

علىَّ من الُجْنح العميق وبادَروا

وزَفَّ على قلبى الهلوع ضجيجُهم

وقهقه صوتٌ من ضميرىَ سَاخر !

* * *

همُ الناس ياليلاىَ صاغوا ضميرنا

على قالب ممّا يريد الأكابر :

طلعنا على الدنيا بنفسٍ رضيّةٍ

سواءٌ لديها فى هواها المناظر

يُجاذبها جنحٌ من الليل حالكٌ

ويفتنها ضوءٌ من الصبح باهر

إذا صَفَت الآفاق تهوَى صفاءها

وتبسم إن غامت عليها المواطر

تقدِّسُ فى الطهر البتول سكونَها

وتمضى إلى الخِلِّ اللّعوب تسامر

وتبسط كفّيها إلى كلِّ هاتفٍ

ويدفعها شوق إلى الناسِ غامر

وَلم تكُ تدرى يومَ ذلك ما التُّقَى

ولا الغىّ . . إلا ما تقول المشاعر

هُمُ الناس يا ليلاىَ صاغوا ضميرنا

فأوفت بنـــا للنائرات الضمائر

عرفنا من الناس الغوايةَ والتُّقى
وصاحبَنا ناهٍ من النـاس آمر

وقامت بنا للخير والشر ساحَةٌ
هوت بثراها للســلام منائرُ

غرامُكِ فى الأحشاء عاتٍ مسيطرٌ
ورأيَ فى الأعماق غضبانُ ثائر

ولى من هواكِ المُرِّ قيدٌ أحبُّــه
أخاف عليــه هِمَّتى وأحاذر

وأحنو عليــه كلما عَضَّ خافقى
كما تتشهَّى عضَّــةَ الطفل عاقر !

هو الحب ياليلاى . . أنبلُ ما انطوى
عليــه فؤاد أو تملاّه خاطر

قضيتُ ربيعَ العمر أرجو لقاءه

إلى أن تبدّتْ من شتائى البوادر
فـكيف أذود الدفء والقُرّ جائر
وكيف أخلّى النورَ والليل عاكر ؟ !
هم الناس ياليلاى . . خَطُّوا مصيرنا
فمالَتْ بنـــا للهاويات المصائر
أريد . . وصوت الناس فىَّ يريدنى
على غير ماأهوى ، فكيف أُدَاور
تحيرت يا ليلاى . . لا العقلُ قادر
فيسحقَ أهوائى ، ولا القلب قادر

عـرّافـه

جلستْ تُسائل عن ضمير الغيب سُؤْرَ شرابها
وتُجاذب الأيامَ بالإلهـام سِتْرَ ضبابها
غابت عن الدنيا حواليها وعن أترابها
وسمت بصيرتُها ورفَّت فوق قيد ترابها
حيرى تبسَّمُ للدروب إذا مضت لرغابها
ويضج خافقُهـا الصغيرُ إذا التوت بصعابها
فى كفِّها من خوفها رجْفٌ وفى أهدابها
يقتادها الأملُ الجميل لمستسرِّ طلابها
فيردُّها شكٌّ يغلِّف نبعَها . بسرابها
ذهلتْ فأيقظها عطوفُ الصوت من أحبابها :

***

يا فتنتي لا ترهبي الغيبَ الخبيء ولا دجاهْ
هو صُنْعُ أيدينا نكاد إذا أردنا أن نراه
غرسٌ من الأفراح والأتراح والسلوى ثراه
نُلقى به في يومنا ونذوق من غدنا جناه
تهبُ الحياةُ لنا غدا من مثل ما نهب الحياه !

* * *

ألقِي الظنون إلى اليقين يجدّ من أسبابها
هذى الحياة لنا ونحن اليوم من أربابها
تحيا بنا وشبابنا الريان نبع شبابها
نخشى الغيوب؟.. وما الغيوب؟ وما ظلام حجابها ؟
هى ضَلَّةُ الأوهام فى بيداء من أوصابها
أيامنا غُدُرٌ يفيض الغيب من تسكابها
عذباً إذا طابت وطاب الماء فى أكوابها

ويمُرُّ مشربُه إذا لقىَ القـذى من صابها

هىَ شـعلة مرفوعة فى غيبنا نسعى بها

نمضى إذا ضاءت ونخبط إن دجت فى غابها

* * *

يا فتنتى هـذا الشباب تفيض بالنعمى يداهْ

دفاقةً لا اليـأس يحبسها ولا وهم العُنـاه

لا تعبسى ... ودعى الزمانَ الطلقَ يجرى فى مداه

ودعى ابتسامتك الطروبَ تُضىء فى هذى الشفاه

تعْنُ الغيوب ويمسح المـاضى عن الدنيا أساه

لن أنــام

لا . . لن أنام وصحوتى لم تَنْفِ عن عينى قذاها
نفسى تبيت على شجًى وأريد أعرف ما شجاها
إنى مللتُ عُلالة السّــلوى وملّتنى رؤاها
لا . . لن أنام وللظلام بغُرفتى كفٌّ أراها
سأنير شمعتىَ الضئيلةَ ثم أسهر فى ضــياها
وأبيتُ مرتفقاً بنافذتى تؤرّقنى صَباهــا
وأراقب الدّربَ الملىء بعصبة ثقُلت خُطاها
يمشون فى حلق القيود وكلّهم حُرٌّ أباهــا
يتململون بعــزمة وقَدَتْ رءوسَهم دِماهــا
يتلمسون على الظــلام طريقةً ناءٍ مَداها
ويشير رائدهُم إلى القمم البعيدة فى عُلاها :

يا رفقتى . . شدّوا على أقدامكم وانسوا أذاها
هىَ خطوة أو خطوتان ويبلغ العانى رباها
أنى لأنسم فى طريقىَ ريحَها وأرى سناها ! . .
سأظلّ أرقبهم وأرسل صيحتى يسرى صداها :
يا إخوتى لا تيأسوا ! . . لم يبق إلا منتهاها
إنى لأسمع أنَّةَ الأصفاد قد خارت قواها . .
وأظلّ أرفع شمعتى والرّيح تعبث فى ذراها
من هاهنا يا رفقتى . . . ألقوا القيود إلى ثُراها
ها أنتم الأحرار بعـــدَ مذلّة فصمت عراها
فتنفّسوا ملء الصـــدور سعادةً ورِضًى وجاها
واستأنفوا السّير الحثيث لغـــاية باد هداها

* * *

ها قد بلغتم قمّـــة قد كان صعباً مُرْتقاها
شبّوا على أعلى البروج لهيبَها وارعَوْا لظاها

ستكون مقبَسَةً لمن لقيت مشاعلُهم رداها
وتكون مأمنةً لمقرور على البيداء تاها
مُدّوا بأيديكم لمن فى السفح يُصبح فى حماها
وتُجمِّعوا من حولها دنيا يعذبها طَواها
تلقى على أكنافها — من غير مسألة — قِراها
شبعاً ومأمنةً وعزة أنفس تُعلى الجباها

* * *

سأظل مرتفقا بنافذتى تداعبنى صَباها
وأروح أرقب نجمة الأصباح تنهض من كراها
وأظل أحدوها بألحانى لتعجل فى سراها
حتى إذا طلع الصباح . . . وشاهدت نفسى ضحاها
وفتحت للنور المرقرق غرفتى . . حتى كواها
ورأيتُ مشرقةُ الوضِئ يضئ للدنيا خطاها
أطبقت أجفانى وقد سَلَّتْ هناءتُها قذاها

بعد عامين

فى رُواءِ الضُّحى.. وقد زخَرَ النُّور   وحلّتْ رداءها الأزهارُ
وهفا فى النسيم رَوْحُ عَبيرٍ   شعَّ منه الخيالُ والأسرارُ
وصَغَت نحوه القلوبُ وأرخت   للرؤى من عنانها الأفكار ...
لحتِ لى فجأةً فحار يقينى   واسترابت فى حسّها الأنظار
وتلاقى على فؤادىَ شجو   وسرور وجرأة وفرار
ومَعانٍ مستبهمات حيارَى   وادّكارٌ يردّه إنكار
ثم صحَّ اليقين وانبثق الماضِى   وألقى طريقَه التيار
وتجلّيتِ فى الرّبيع ربيعاً   أطلعتْهُ على الرّبى الأقدار

***

يا حياتى ... لا تأخذينى بِرَيْبى   فلِريبى من الأسَى أعذار
واغفرى لحظةً جهلتك فيها   فبروحى من الشّقاء دُوار
سلَبَتْنى بصيرتى ظُلَمُ الليل   وتُرْبٌ على الضحى مَوّار

وسكونٌ كأنه مبرد يفـــرى كياني وهوّة وعثار . .

وتغيرتِ فتنتي . . واستَتَمّت بعد عامين للشباب ثمــارُ

خلعت سحرَها عليكِ الليّالى ومشى فى صِباكَ وَجْدٌ مُثار

وتزيّنت كالعروس... وفاضت بالمراح الخطى . . وخفّ الوقار

واستدارت على جبينك سُمْرٌ ناعساتٌ عهـدُتها لا تدار

وتبدّلتِ بالسّـــوادِ رِداءً نفحَتْهُ ضـيـاءها الأسحار

هادئ اللون ... كالغدير مساء ذَوّبَتْ فيـه ظلَّها الأشجارُ

قد تغيرتِ فتنتي ... فاغفرى لى شَرَداتى . . . وقلبُك الغفار

لا تخالى أنى نَـكِرْتُكِ عمدا أو سلوًّا .. فما خَبَتْ لكِ نارُ !

لا وحُبّيكِ ! . . ما طوانىَ ليلٌ دون ذكرى ولا علانى نهار !

قد سلـكنا إلى العزاء فنونا واصطبرنا فمـا أفاد اصطبار

وحسبنا فيمن نلاقى غنــاء فعشقنا . . وطبعنا الإكبار

كم أقمنا من الرمال صروحا وشهـــدنا صروحنا تنهار

وكشفنا قلوبنا لبغـــايا تتلهّى بحبنا ونغـــار !
كلّما بَضَّ من فؤادىَ جُرْحٌ أو حوانى فى طيّه إعصارُ
ذكرت روحىَ الـكسيرةُ مغناك وحنّت لعشها الأطيـــار
وتبلجتِ فى جنانىَ نُبْــلاً قدسيًا تهـــابُه الأوزار
فإذا لفحةُ الجحيم ســلام وإذا عصفَةُ الرياح قرارُ
لا وحبِّيك ! . . ما طوانىَ لَيْلٌ دون ذكرى ولا جلانى نهار

***

منذ عامين ها هنا . . كم وقفنا تتساق بشـــجوها الأبصار
وبَلَوْنا مِن حبنا نبضات لم تدنِّسْ جلالَها الأفـكار
خالصاتٍ لحسّنا دافقـــاتٍ بوجود يُخيفنا فنحـــار
كم ركنّا إلى الفرار . . . فنادانا إلى لفحـــهِ الحبيب أوار
ونظرنا إلى السّفوح بشوق فدعتنا للقمّة الأخطار ! . .
منذ عامين ها هنا . . كم تراءت لصـــبانا على الدُّجى أنوار
فنفضنا قلوبَنـا من أساها وازدهتنا بلحنهـا الأوتار

وأمانٍ نؤمُّها مَطْلَعَ الصبح ونمضى لشهدها نشـــتار
لم تكنْ غيرَ أمنياتٍ . . ولـكن كم أُتيحت فى ظلِّها أوطار
وأديرت من الخيال كؤوس لم يَشُبْها من الحياة غُبار
وسمونا بســـحرها ورؤاها لحيـــاة تقصُّها الأسمار !

* * *

كل هذا الوجود كيف تلاشى واستقامتْ من بعده الأعمار
ومضينا . . . قد دُمِّرت لحظات عامرات وطمِّرتْ أنهـــار
وتلقَّتْ من الزمان سطورا حادثات يخطّها المقـــدار !
أين ولّى سرورُنا وأســانا وانقياد لحبنا ونفــــار ! ؟
وامّحت من إحساسنا خلجاتٌ قد غَذَاها إحساسُنا الزخّار
كل ما قد مضى فللعدم الطاغى يزجّى . . وغيبنُا أسرار
وقُصَـارانا بين ماضٍ وآتٍ خَلَسَاتٌ من الحياة قِصَـارُ

تمثال

طرقتْ بابى وقد أخــلدتُ للأحلام دهرا

وانطوت نفسى وألقت دون دنيا الناس سترا

طرقت بابى . . ففاضَ البيتُ إشراقاً وعطرا

قد تجــلّى الحسنُ فى أعطافها لِيناً ويُسرا

وتناهَى وجهُها الفتان إقبـالّا وبشرا . . .

قالت : اصنع لىَ تمثالّا يَرُدُّ الصخرَ سحرا

ألقِ فيه من معانيك . . . وخذ ما شئت أجرا

قبـلةً من شفتى الحرّى تُريك الليلَ فجرا

أو عناقا أرتمى فيــه على صدرك سَــكْرَى

أنتَ كلُّ الناس .. إن هيّأتَ لى فى الناس ذكرا

* * *

قلتُ لبّيك ! . . وهل أستطيع للحسناء ردّا ؟ !
أنا إن ضاق خيـالى أو غدا فـكرىَ صلدا
فسناكِ الحلو يغـــــذو الفنَّ إلهاماً وجهدا
ويمدّ الأُفقَ الضيِّقَ للإبداع مَدَّا . . . .
واستوى الإزميلُ فى كفِّى يقدُّ الصخرَ قدّا
ويسوِّى الخشِنَ النـاتئَ سيقاناً وخـــــدّا
ووراء الـكفِّ إحساس يذود الزَّيْغَ ذودا
وخيالٌ يخلع السِّحــــرَ على الأحجار بُردا
نفحةٌ من عالمِ الروح تجلّتْ بعدُ خُلدا
فى مثالٍ يهب الفنّ على الأجيـــــال مجدا

* * *

ورفعتُ السّترَ مزهوًّا وقد مُلِّئتُ عُجبا :
هذه آيتىَ الـكبرى إلى الحســـناء قربى

سوف تبقى فى سماء الفنِّ للأرباب رَبا ! . . .

فرنتْ عجْلَى . . . وردَّتْ طرفهاَ للباب غضبى

وأشاحت ثم قالت : قد ملأتَ القلبَ كربا

وسكبتَ الخيبةَ المُـــرّة فى الآمال سكبا

أنا لم أسألك أوهاماً تخـال الأرض سُحبا

أنا بنتُ الأرض . . لم آلُ التراب الحىَّ حُبا

قد رفعتَ السترَ عن زيفٍ يردُّ السهل صعبا

أمثالى ذاك ! لا . . ما كنتُ للأملاك تِربا

***

لمْ ملأتَ الوَجْهَ والعينين أحلاماً ونجوى ؟!

وجعلتَ الجسد المستوفِزَ المشـــدودَ رخوا

ورسمتَ الطّهرَ فى ثغر من التقبيل أحوى

لمَ أضحى خطوىَ المستيقظُ المراح رَهوا ؟ !

واستحالت لهفــة القلب إلى اللذات سلوى
أين نهد جشّمته الرغبـــــةُ الملحاح صحوا
وفم كالبرعم الظمآن . . . بالنيران يَرْوَى !
ولحاظ — قبل أن تشهد لون الرّاح — نشوى
ذاك صوت الحقّ . . قد أضحى على زيفك لغوا
وأباطيــل تريد الفنّ إيمـــانا وتقوى

* * *

وهوت بالمعول المشـــئوم للتمثال حطما
فهوى كالقمّـــــة الشمّاء عدوانا وظلمــا
بِدَداً قد خلتُها فى موطئ الأقدام تدمى ! . .
ومضت فى ثورة هوجاء كالإعصـار قُدما
توسع الأرض خطاها الحمرُ تمزيقــاً ولطما
وعلى آثارها خط الدّمُ المسفوكُ رسمـــا :
ها هنا منذ قليـــــل أزهق الواقعُ حُلْما

وبَلَى الفنَّانُ رُوحاً صولةَ الحسناء جسما ! . .

ومضت ... واصطفق البابُ .. فألقى الباب حكما :

عُدْ إلى وحدتك الخرساء يا مسكين رغما

* * *

عدتُ يا وحدتىَ الظمأى فروِّى الثأرَ منّى

واتلُ يا ليـــل غياباتى وخُذْ يا صمتُ عنى

وقنى ما بين هــذا النور يا حُجْبى و بينى

دِفْء شمس الناس يكوينى .. ويؤذى النورُ عينى

اسـكتى أيّتها الأحلام ! . . فالبلوى تغنّى

ألف بوق . . ألف طبل من أغانيها بأذنى

أوَ أسلو ؟ ! كيف للسّلوان أن يرتاد سجنى

وأمامى فى الثرى أشـــلاء أحلامى وفنّى !

يا شذاها . . أو ما زلتَ بأعطافى ورُدنى ؟ !

ويحها غابت . . وأبقت سمّها فى الجوّ يضنى !

انطـــلاق

فى مطلع الوادى وقد ولَّى عن الوادى سَناهْ
وتجاوبَتْ فى المغْرب الغيمان أصـداء الرُّعاهْ
ألقى على كتفيه شملتَه وَهمَّ إلى عصـــاه
ومضَى ترُود المرج عينـــاء ويصغى للشياه

* * *

يتسمّع الصـــوت الذى تحلو بنبرته السهولْ
أَصْفَى من النّايِ المسلسل عند أحلام الأصيل
هىَ شاته سمَرَ الحقول وفرحة الـكوخ الجميل
سمراء كالفجر الوليد يجـــرُّ مُطْرفه البليل

* * *

ومشى يغنّى فى خفوت نحو منعطف الطريقْ
يســـــعى ليلقاها وفى عينيه للنجوى بريق
وبشائر الأمل الجميل تهـــزّ خاطرَه الرقيق
عجبا ! لقد سكن المــكان — فلا أنيس ولا رفيق

* * *

لم يلمح الشاة الحبيبة تقصـد الراعى الحبيبْ
والريح لم تحمل إليه ثُغاءها عنـد الغروب
هو لا يراها بين قطعان تزَاحمُ فى الدروب
يا لهفتا ! ماذا ترى قد عاقها ؟ ومتى تؤوب

* * *

وتردَّدَتْ فى فـكرِه المـكدودِ أوهامٌ ثِقالْ
ذكر الغرابَ وكيف صاح على غصون البرتقال
والــكلب كيف عوى ومرّغ وجهَه بين التلال

يا شؤم هذا اليومِ تسرى فيه رائحةُ الزّوالْ !
هو ذا يذود بكفّه عن عينه ألَقَ الشعاعْ
ويدور يرقب كل رابية وينظر كل قاع
ويعود يرنو خلف رعيان إلى المأوى سراع
يا ويحهم رجعوا !... وخُلِّفَ وحدَه القلقُ المراعْ

* * *

أيؤوب يسحب بعد غيبته عصاه فى انكسارْ
أيغادر الشاة الحبيبة فى الظلام بلا قرار
ويروح لم يسبقه فى الدرب الطويل لها غبار ؟
بئس الرواح إذن . . وما أخلى من الأنس الديار !

* * *

ومضى على وجل شرودَ اللُّب يعثر فى خطاهْ
وفؤاده العفّ الطهور يكاد يتهم الإلـه

فيردُّه للصـــبر والإيمـان باقٍ من نُهاه
ويعود يدعوها على أملٍ ويرفع من نداه :

* * *

يا فتنة الراعى لقد أوفى على المرج المســـاء
وتضرجت حُمر الغيوم بما تبقى من ذُكاء
ونسائم الليـل البليل تسـوق أنفـاس الشتاء
والطير قد عادت وملء وطابهـا حَبٌّ وماء
وفراخهـا فى عشهـا متسمِّعات للقـــاء
للدفْء والشـــبع الشهىّ وللغناء وللمُـكاء
والزهر فى ألفـــافه أغفَى على نغم الرِّعاء
أغفى على شط الجداول قد خطرن على وَناء
فتتبعى يا فتنة الراعى أناشيـــد الحـــداء
تحدو رواحَك نحو كوخ قد أقيم على صفاء

* * *

يا فتنة الراعى لقد رانت على الأفق الغيومْ
وخبا من الشفق اللهيب فعاد كالطَّلَلِ القديم
وتأوّهت فى الغـاب أرواحٌ أقضّتها الـكلوم
وسعَت به الأشباح فى سِتر من الغسق البهيم
أشباح صرعى غالها فى الغاب شيطان رجيم
لبست قناعا من دم وتسربلت كفنَ الرَّميم
رقصت على زَبَد الجراح وقد نزفن من الصميم
والريح تعزف لحنها المشنوءَ كالنَّفَس الـكظيم
وعمالق الشجر الرهيب تحفّ أجوازَ النجوم
وظلالُها من تحتها متموجات كالســـــديم

***

يا فتنة الراعى لقد طُويت على الشرِّ الهضاب
وتلفَّعَتْ بالصمت أوديةٌ تضجُّ بهـا الرِّغاب

فى كل مربأة تأجّجُ مقـــلةٌ ويَصِرُّ ناب
أنَّى خطوتِ فللردى خطو وللغـدر انسياب
سكنت على العشب الصِّلالُ تدير للفتك اللُّعاب
متـكورات كالمشيم فما تُحَسُّ ولا تُهاب
وتربصت خلف الصخور الصُّم عادية الذئاب
غرثى تلوكُ الطينَ من سَغَبٍ وتستاف التراب
وتعضُّ بالأذناب فى خَبَل وتستجدى الشعاب
تعوى فينتَفِضُ الـكرى وتهز أستار الضباب !

* * *

أمّا الشَّرودُ فأسلمت للغابة الـكبرى خُطاها
يقتادها شـــوق إلى المجهول ينفخ فى قواها
كم ليلة راحت مع الراعى يُجاذبها هواهـا
فالآن فلتُقْدِمْ على الأدغال حتى منتهاهـا

* * *

كم ليلة وقفتْ أمام الغـاب يعصرها الوفاء
وغماغمُ الدّغـل العجيب يزيد فتنتَها الخفـاء
وروائح الورق المخمّر فى الثرى روحُ اشتهاء
كم فوق هذى الأرض من دنيا ! وكم تحت السماء !

* * *

عجبتْ من الـكوخ الـكئيب وكيف طاب لها المقام
فى منزل مستوحشٍ خشِنٍ دعائمــــه حطام
الزاد فى أركانه حطب ومضـــــجعه رغام
يتفلسف الراعى ويزعم فى بساطته السلام !

* * *

وتقدمت بخطى المحاذر والدوار بهــــا يميدْ
من رهبة الجنح المديد ونشوة الـكون الجديد
ماذا وراء الستر من غيب ؟ وما خلف الحدود ؟

ليت الظلام يشف عما قد أجنّ من الوجود

* * *

وتقدمت فإذا الظلام كأنه صـــــبح منيرْ
ألِفَتْهُ عيناهـــــا فمزقت الحواجب والستور
نـــكِرَتْ هنالك ما وعته عن الظلام من الشرور
لا ضجّة الأشباح تلقاهـا ولا صمت القبور !

* * *

شهدت هناك توثُّبَ الأحياء للــكون الرحيبْ
وعصارة الحيوات يُسْمع فى الغصون لها دبيب
وتنفُّسَ الأرض الدفيئة وانبعاثاتِ الطيوب
وتشقق الطين المضمّخ عن وليدات الغيوب

* * *

وتَلَوّىَ العلّيق واللبـــــلاب من رُوح البقاء
يسمو فيزحم منكب الدّوح الفتىّ إلى الفضاء

وغضارة القطر الضعيف يكاد يغلبه الحياء
لم يجفّفه الماء الرّوِيُّ ولا تنكّبه الهواء

* * *

كلٌّ ينال وإن تراحت الأماني مبتغاهْ
في عالم خصب تململَ من خُصوبته ثراه

* * *

وتقدمت فرأت عوالم لا يحدُّ لها براح
تنداح في أرض مشعّبة وآفاقٍ فِساح
وتضيق حتّى ما يمُدُّ الطيرُ فيهنَّ الجناح
وتُذبذب القلب المغامر بين ضيق وارتياح

* * *

وتجاوبَتْ في الغابة الفرعاء ثرثرةُ الرياحْ
مَمْزوجة الأصوات لا همسٌ يبين ولا صياح

وسرى الصفيرُ مع الهدير وخالط الضحك النواح
وحْشيَّة الأنغام بنت الغاب لم تُعزف بِراح!

* * *

والسيل ما أَعْتَى توثُّبَــه على هام الصخورْ
متحدِّر الأمواج منقضًّا بأجنحــــة النُّسُور
زَبَد كألوية الضياء ولجــة كدجى القبور
وهَمَاهِمٌ مكبوتةٌ كالإثم فى جوف الضمير!

* * *

خاضت إليـــه وزاحمت بقوى موثَّقةٍ قواهْ
القاع يجذبها فتهــــوى ثم تنشلها ذراه
فى القاع إحساسٌ وفوق المـاء إحساس سواه
بُورِكتَ يا سيل الحياة جريتَ فى عنفِ الحياهْ!

حلم يقظة

فى مســـاء خافق الغيمات كابِ
والدجى يلقى على الأكوان سترا
سرتُ غَصّانَ بأهواء شـــــبابِ
يبتغى من خيبـــــة الآمال وِترا

* * *

سرت والأضواء حيرى فى الظلامْ
كلمــا ضل شعاع غام كــربُ
والرُّؤَى تحبـــــو إلى قومٍ نيام
وأنا وحـــــدى إلى الآلام أحبو

* * *

ترقص الأظلال فى صمتٍ مهيبْ
فيميد الشجو فى أعمــاق نفسى

وتزِفُّ الريح فى لحنٍ رتيب
فيجيب اليأس من يومى وأمسى

***

وعلى الريح جنــاح خافقٌ
يضرب الآفاقَ للعشّ الحبيبْ
وبجنبيــهِ حنين سابق
يرتمى فى لحنه السارى الطروب

***

أبْتَ يا طير ووافاك الســلامْ
ووقاك الله أوهام الضــلالْ
ولْيُنِرْ شوقُك أسدافَ الغمام
ولْيذُدْ حبُّك آياتِ الكلال

***

أبْتَ يا طير . . . فيـا بؤس الحياهْ

لغريب بات من غـير رفيقْ

أنا يا طـير عـليمٌ بأسـاه

وبمـا يلقاه من همٍّ وضـيق

* * *

وهوى فى مسـبح الديجور طيفُ

راجف الذرّات موهونُ الذّماءْ

واستوى الليل وحفـّ العرشَ خوفُ

أسـودُ الجلباب منشور اللواء

* * *

إيهِ يا ليـل العُنـاة الحائرينْ

أنت ياليـل رهيبٌ فى سُراكْ

تبسط الشـكّ على وجه اليقين

ويُراع الأمنُ من وقـع خطاك

* * *

ياله صمتـاً إذا مَلَّ السكونْ

زفـر الريحَ صفيرًا كالفحيحْ

فإذا الصمت جـهير مستبين

يبعث الموؤودَ من ماضى الجروح

* * *

عُذتُ بالله أيا ريحَ الشـتاء

من معانٍ فيكِ تستدنى الأجَلْ

غلب البؤسُ فأسـعِدْ يا رجاء

ودجا اليأس فادْرِكْ يا أمل . . .

* * *

وبدا فى الُجنْح من أعماق نفسى

كانبثاق الحبِّ من جوف الترابْ .

بارقٌ يبسم فى صـــفو وأنس

راقص اللمحات جـذلان الشباب

* * *

داعب الآلام فارتاحت إليـــه

ومشى لليـــأس فانحلّت عراه

ومضى لم يختلف شجو عليـه

كلما طاف بمكروه محـــاه

* * *

أشرقت نفسى كإشراق الوليـد

رائق الصفحـــة مبسوط الضمير

واستفاض النور فاجتاب الوجود

يهتك الحجب فتـدعوه الستور

* * *

فإذا الليـــل صبـاح وادعُ
أبيض الآفاق لألاء النـــدى
وإذا الصمت هـــدوء رائع
حالم الأنفاس مهموس الصـدى

* * *

وهفـا الصفو إلى لحن الرياحْ
فإذا اللحن كما تهوى النفوسْ
لا عنـاء ، لا ملال ، لا نواح
كغناء الغيد فى مَجْـلَى العروس

* * *

غشىَ القلبَ حنـــينٌ زاخرُ
وبدا الـكون جميعا ينتظرْ
مسمعٌ مصغٍ وطـــرف ناظر

ومُنًى تحشد أشتات الصــــور

* * *

ومشت فى مدرج الوادى ظنونْ
تسأل الوادى عن الغـادى الرحيمْ
لمن الشوق ونَزَّاعُ الحنـــين
ومن السارى على متن الغيوم ؟

* * *

أقبلى يا ربةَ الحسن النبيـــلْ
من حنايا القلب للأفق الرحيبْ
وابعثى المـاضى فللماضى صَـليل
سئمت أصـداؤه سجن الغيوب

* * *

وبدت تخطـــر فى رفقٍ ودَلّ
كانسياب المـاء فى ضوء القمرْ

يشفق الأفقُ عليهـــا أن تولّى
فيُهاديها تهـاويلَ السَّـــحَرْ

* * *

نَسَقَ الزّهـــرُ لعطفيها وشاحا
وزها التـــاجُ بغراء الجبينْ
وسما طَلٌّ إليه فاســـتراحا
وهفـــا طَلٌّ إليه فى الغصونْ

* * *

لفتاتٌ مثلما يلهو شُـــعاعْ
عابث المرآة فى كفِّ الولـــيدْ
التماعٌ ثمَّ يخـــفى فى التمـاع
ثمّ يرتدُّ إلى وجـــهٍ جديد

* * *

ولحاظ جمعت وَعْيًا وسهوا

إن أردتَ الفكرَ أو رُمْتَ الخيالْ

فى ظلال الهُدب أسرار ونجوى

وعلى الألحاظ من فكرٍ ظلالْ

* * *

حبذا الفتنة من هذى الشفاهْ

وضحوكٍ ليس يدرى كيف يَعْبَسْ

من رضى النفس تجلَّى فى سناهْ

ورضى النفس مَعِينٌ ليس يُحْبَسْ

* * *

حبذا أنت من الدنيا نصيبا

أىُّ دنيا من نعيمٍ وهناء !

قد غفرنا للأسى الجانى الذنوبا

فليُسِئ من بعدها كيف يشاء

* * *

يا قرار الروح قد طال الهيامْ
بالهوى الموعود فى ظل الشباب
كاد يمضى العمر عاماً بعد عامْ
فى مُنًى حيرى وأحلامٍ كِذاب

* * *

آن يا سلوايَ أن أنسى الجراحْ
طال يا سلوايَ ما أنَّتْ جراحى
سكنت نفسى إلى ضوء الصباحْ
شَدَّ ما أخشى على ضوء صباحى !

* * *

غلبَ الوهمُ على صدق يقينى
وعشقت الحبّ فى رَيق صباىْ

وقضيتُ العمرَ أحلاماً فكونى
فى أصيل العمر تأويل رؤاى

* * *

كان لى فى مطلع العمر غديرُ
مائس الأعطاف فى وادٍ نضيرْ
موجُهُ لحنٌ على الماء يسيرُ
ناعس الأنغام وسنان الخريرْ

* * *

كم صباباتٍ زكَتْ فى ضفتيهِ
وأمانىّ زهتْ حول رباهْ
وغرامٍ هامس فى مسمعيهِ
خفقةُ الأمواج والطيرِ صداه

* * *

تضحكُ الجراتُ للمـــاء الطروبْ
وترُوعُ الشطَّ همساتُ العــذارى
كلما هبَّت شمـــالٌ أو جنوب
حملت سرا على الـكتمان ثارا

* * *

كلما هبَّت أثارت فى الحنـــايا
عاصفا ينزو من الشرق المَريدْ
فمضى اللحن بأهواء الصـــبايا
سامىَ الأنفاس محـــاولَ القيودْ

* * *

قد شهدتُ الحسنَ ألواناً عليـــهِ
فهفا للحسن خفّاق الصـــغيرْ
ورأيتُ الُحبَّ يختـــال لديه

فصحبت الحب . . . والحب سمير

* * *

ثم لفَّ النهرَ والوادى ضـبابْ

وانطوى فى غمرة الأيام صـفوى

بين همٍّ وسـقامٍ واغتراب

وخطوبٍ أرّقَتْ نومى وصحـوى

* * *

ذهب النهر . . . فكونى أنت نهرى

إن حبى لم يزل غضـا جديدا

كحياة العُود فى الأعمـاق تسرى

والشـتاء الجهم لم يتركه عودا

* * *

نحن نبعان حبيسـا صخرةٍ

من تقاليد السـنين الغابرات

فلنذُذْهــــا ولنقِضْ فى ربوةٍ
رحبة الآفاق من ماض وآتْ

* * *

تطلع الشمسُ علينا فى عناقْ
وتغيب الشمس عنا فى سِرارْ
ليلُنا نحو أمانينا ســـــباق
ولمــأوانا ومغفانا النهــــار

* * *

فى ربيعٍ من عطور وغنــاء
رائع الأفواف من عشب وزهرِ
ضلّ عن واديه روّادُ الشــقاء
لا النّوَى تدرى ... ولا الأقدار تجرى

* * *

وهوى من مغرب الأفق غمامْ
مكفهرٌّ بعضه يدفع بعضا
ينشر الليلَ على فجر السلامْ
ودُجاه للسنا يقطر بغضا

* * *

زحمته الشهبُ فاستعدَى لها
كِسَفاً تعلو وأخرى تسفلُ
تُعْوِلُ الآفاق ممّا غالها
وتئِنُّ الريحُ ممّا تحمل !

* * *

أبصر الطيفُ دجاه فاختفى
ورنا النور إليه فارتجفْ
وتلوّى لحظة ثم اقتفى

أثر الطيف فلفّتْه السّـــدُفْ

* * *

وتبدّى فى فؤادى بعــد حينْ
شاحبَ اللمحة مقرورَ الشــعاع
واهن الخفقة من تحت الشجون
الشجون السود . . . ظمأى للصراع

* * *

أوصدتْ كلَّ ســبيلٍ للهواء
فبـكى النورُ إلـــيه واضطربْ
ثم سَلّت روحَه كفُّ القضــاء
وتلاشى . . . مثلما جاء ذهب !

* * *

وتلاشى مثلـــا تخبو الشموعْ
فوق قبرٍ موحشٍ فى ليل عيــدْ

الأمانى والقــوافى والدمــوع

فى ثراه تندب الماضى الســعيد

* * *

قد تركنا اليــوم للصُمِّ العُتاهْ

وتركنا الغــدَ للغيب الضنين

وتشبثنا بماضــينا فتــــاه

فى ضبابٍ من عذابٍ وشجون

* * *

يا فؤادى ليت شعرى ما دهاك !

هىَ ذكرى .. أى ذكرى لا تغيب؟!

قد أبيتَ الدمع فى قاع الشراك

أوَ تُجريه على طيفٍ غريب ؟ !

* * *

وأجاب القلب بالصـــمت المبينْ
ودماه من أســـاه تنتفضْ
فخثت الخطوَ فى الليل الحزين
وصُروح الغـــيم لمّـــا تنتقض

* * *

ترقص الأظلالُ فى صمتٍ مهيبْ
فيميد الشجو فى أعمـــاق نفسى
وتزِفُّ الريحُ فى لحنٍ رتيبْ
فيجيب اليأسُ من يومى وأمسى

غيابُ

الضحى فى المرج مبهور الضياء
آمِنُ الصفحة من ريحٍ وماء
كلمـــا همَّ بلمْحٍ من رجاء
سبق الغيمُ إليـــه فطواه

* * *

ما لهـــذا الطير معقولَ الجناحْ
وغصون الدّوح ملَّتْهـا الرياح
ونفوس القوم قد عُلَّت براح
للأسى والصمت تُنْمَى كرمتاه !

* * *

وسكونٌ جاثم فى كل حَىّْ

وحَرور لافح من كل فَىّْ

وظـــلام غائم فى مقلتىْ

آه لو تجليـــه عنى مقلتاه !

***

أيها الغائب عن هذى المروجْ

أكثرَ الصمتُ حوالىّ الضجيج

غيرَ همسٍ من نُفاثات الأريج

وحنين للذى غاب شــــذاه

***

أيها الغائب لا عتب عليــكْ

الشباب النضر ريّان لديك

وأمانيــــك جميعا فى يديك
كيف تدرى أن فى الدنيا عُناه ؟!

* * *

أنا يا دنيــاىَ أبلتنى الهمومْ
والليالى الصُّمُّ والوجد الــكظيم
واستطابت أفقىَ الــكابى غيوم
تلتقى الأقدام فيها بالجبــــاه

* * *

أنا يا دنياىَ قلب من شجونْ
خفقُه الموهون أنّاتُ الحــزين
أثخنتْ فى عزمه سودُ السنين
وتلاشت فى مناياه منــــاه

* * *

كل ماضيه من النعمى خلاءْ
والغـــد المحجوب غيمان الرجاء
أين يمضى خطوه . . . ماذا يشاء
وسناك الحلو لا يهدى خطاه ؟ !

* * *

امنحى ماضيه من نعماك ذكرى
فالغـد المحجوب يخفى ثَمَّ أمرا
وأُسَى المـاضى ترد الشجو صبرا
وتشدّ العزم إن كلّت قواه

* * *

وإذا ما مرّ يوما فى رحابكْ
يرتجى الروح على أعتاب بابك

فاغمريه بحياة من شـــبابك

تبعثيه من جديد للحيـاه

* * *

وإذا أبصرتِه مَلَّ الصحـابْ

وأغَصَّ الـكأسَ بالهَمِّ المذاب

فامنحيه عطفةً ... يُمْحَ العذاب

وتُحسَّ الصابَ حـلواً شفتاه

* * *

لا تمـرّى كأمانيه سراعا

واستقرّى فى لياليـه شعاعا

إنه يجرعها ساعاً فساعا

ويحَ هذا العمر لو طال مداه !

* * *

أنتِ نبع من صفاء وحنـانْ

يغمر القوم بأضـــواء حسان

وهو المحـــــروم مُعْتَدٌ جبان

منطوى النفس على ذل وجاه

* * *

شاعر مَلَّ على البـاب الزحام

يشتهى الحب ويأبى أن يضام

فاحجبى القوم وخُصّى بالسلام

ذلك القلب فلا قلب سـواه

* * *

حدّثيـــه ثم لا تبغى جوابا

ودعيه يصحب اللحنَ العجـابا

وإذا ما هزّه الصمتُ فشـــابا
فارحميه واسأليـــــه عن رؤاه

* * *

اسأليه واغفرى خفقَ بيـانِهْ
فالجمال الطُّهرُ أقوى من جَنانه
والحديث العذب يسرى فى كيانه
فيردّ القول نشــــوان الشفاه

* * *

تلك يا غائب آمال كِبارْ
فى رؤى الليـل وأوهام النهار
كلما صاديتُ عنها الفكرَ ثار
ومضى يضرب فى دنيـا هواه

* * *

كم سكبتُ القلبَ آمالا حسانا
واثبـــاتٍ تتخطى بى الزمانا
ثم خلّتنى وأبقت لى الهوانا
وكئيباً خَفَقُه رجْعُ أســـاه

* * *

علّمتنى صحوةُ الحـــلم السكونْ
ورضى المغلوبِ بالجدِّ الطعين
فإذا ما ضج فى قلبى الحنـين
قلتُ أسوانَ ... وفى العتبى نجاه :

* * *

أيها الغائب لا عتب عليـك
الشباب النضر ريانـ لديك
وأمانيك جميعـــا فى يديك
كيف تدرى أن فى الدنيا عُناه ؟!

لا أستطيع

كلما أزّتْ برأسى ثورةُ الفكر الأَبىّْ

وحملتُ المعول الهدّام فى كلتا يدىّ

قاصدًا أصنامىَ الكبرى وقد هانت علىّ

خيَّلَ الحُبُّ لعينى أنها ترنو إلىّ

داعياتٍ للهوى ... والهوى عذبٌ شهىّ

عاتباتٍ ، هامساتٍ : إنّ بعضَ الرُّشْدِ غَىّ

فهوَى المعولُ مخذولاً وخلّى ساعِدَىّ

وسما كفّىَ لهفانَ يُوارى مُقْلَتىّ

وتنزّت من فؤادى صرخةٌ فى شفتىّ :

إننى لا أستطيع !

* * *

إنها آمال نفسى وربيبات خيـــالى

سُقيت ذَوْب حَنينى فى غيابات الليالى

ونماها بيتىَ المهجورُ من صَحْبى وآلى

سلوتى والوحشة الخرســـاء ترمى بالملال

طافراتٍ بالعشايا عن يمينى وشمـــالى

ساخطات راضيات بين صَـــدٍّ وابتهالى

ملقيات فى منـــامى بالأمانىّ الغوالى

عشقتْها النفسُ حتى سئمت عيشَ النضال

كيف أسلو؟! كيف أنسى! كيف أغتال مثالى؟

إننى لا أستطيع!

* * *

صُغْتُها بيضاء من نسكى وحرمانى وطهرى

ساميات لم يدنس ناظريها طيفُ شرِّ

لا ولا ألقى على أسمـــاعها غاوٍ بسرِّ
كيف حلَّ الغدرُ فى لحظين ما رِيعَا بغدر ؟
وثوى الشرُّ رخىَّ البــال فى قلبٍ وثغر
يا لروحى . . . كيف حارت بين إقدامٍ وفَرِّ
كلما همَّ إبائى وسمـــا الحزمُ لأمرى
أجهش الماضى وأنَّتْ حُرْمَةُ الذكرى بصدرى :

إننى لا أستطيع !

رُؤيـــا

أيّهـــا الطيفُ عجيب أن تُلِمّ
أيها الطيف غريب أن أراكْ
ذاكَ ماضٍ قد نسينا عهــــدَه
ونسينا هــــــدأةَ الليلِ سُراكْ
قد جَهِدْنا النفسَ حتى أسمحت
واسترحنا بعد لأيٍ من هواكْ
وحَبانا الليـــــلُ من سُلوانه
وألِفْنا بعــدُ أطيافاً ســــواكْ
ما دعوناكَ . . . فلِمْ قد جئتَ تسعى
ولــكم عاصيتَ قبلاً مَنْ دَعاكَ ؟ !

***

نَحِّ ياذا الطيفُ عنّى بسمتَكْ
شدَّ ما أبغض يا طيفُ الخداعْ !
هىَ حُسْنٌ قد بلونا شرَّه
ومن الحسن عــذابٌ ومتاعْ
ثم عدنا ما احتقبنا غيرَ صمتٍ
فى وهادِ اليأس . . . قاعًا بعد قاع
نَحِّ يا ذا الطيف عنى نظرتَكْ
قد هتــكنا عن مخازيك القناع
أنتَ منها صـــورة موسومة
بالجمال القدس والعرض المضاع !

* * *

أدْنُ يا طيف . . . لعــلّى واهمٌ
زيَّن اليأسُ له قولَ الضــلالْ

اقتربْ ! أنى أحِسُّ الآن رَوْحًا
من نقاء لم يدنِّسه ابتـــذالْ
مقلتاك اليـــوم ما أصفاهما !
فيهما حب وشـــجو وابتهال
ولَمـــاكَ اليـــوم ما أعجبه !
صادق البسمة علوىّ المقـــال
أدْنُ يا طيْفُ . . . فلستَ اليوم منها
أنت لحنٌ من أغاريد الخيال !

* * *

أنت يا طيف لهيبٌ من دمى
لست يا طيف شـعاعا من سناها
أنت فيض من حنين زاخـــر
نفثته النفسُ من بعض مناهـــا

قد عرفتُ اليــــوم أنّى لم أزَلْ

رغم جهــــدِ النأى أشتاق لقاها

أغتدى والصــــبر لفظٌ فى فمى

و بأعمــــاق خَبِىءٌ من هواهــــــا

و يك يا طيف ! . . بعثتَ اليوم رؤيا

أيقظت نفسىَ من عــــذب رؤاها

* * *

أيقظتْها فى ظلامٍ ســــــادرٍ

لم يبدده ســــوى ضوء هشيمى

جمرة فى القلب تذكى حولهــــا

ألسُناً حمرا من الوجــد العقيم

وعلى النور . . . رأت عيناى هولاً

من نفــــاق العصر والطبع اللئيم

عشتُ حتى اليوم طفلا ساذجا
باسِماً للصبح والليل البهيم
آه مما أبصرت فى النور عينى !
عدتُ يا طيفىَ كالشيخ الحطيم !

* * *

قد بَكَيْنا وأَمِنَّا أن نُرَى
والأسى فى وحشة الظلماء يحلو
دمعةٌ فى الليل . . . ما أروعها
تتلوى . . . مثلما ينساب صِلُّ
مثلَ لذْعِ النار قرَّت فى فمى
ولها فى وجهىَ المحرور غِلُّ
لا تخلْها بَهْرَجًا من شاعرٍ
يملأُ القولَ من الزيفِ ويغلو

فلقـــد تعـــلم يا طيفىَ أنّى

ما ذكرت الدمعَ فى شعرىَ قبلُ

* * *

أيها الليل . . . وكم شاهدت صرعى

أغمضت أعينَهـــم كفُّ دجاكْ

هل سمعت الدهـــر من أناتهم

أنَّةً من هولها هـــزَّت حشاك

هل سمعت الدهر بثّاً مثـــل بثّى

أو تملّت مثـــل شجوى مقلتاك

إن يكن يا ليلُ فى دنياك خطبى

دون خطب الناس فى دُنيا الهلاك

فلهم ياليـــلُ قلبٌ دون قلبى

ولهم ياليـــلُ حِسٌّ دون ذاك !

* * *

لِىَ ياليـــل فؤاد راصـــدٌ

يلمح الأشـــجان فى الأفق البعيدْ

مثـــل غارٍ ساكن القيعان خاوٍ

همسةُ الريح به قصـــفُ الرعود

إن يكن يا ليـــل ما قد ضاع منه

بعض زَيْفٍ من تفاهات الوجود

فعزيزٌ عنـــد ربِّ الروض روضٌ

وعزيزٌ عند ربِّ العـــود عود

ويبكّى الطير من أعشاشــــه

ما يبكّى القـــوم من قصرٍ مَشِيد

أذكريني

افترقنا ... فاذكري الماضي ولا تنسَيْ صداهْ
والمحي في كل محزونٍ خيالًا من رؤاه
وإذا طالعتِ في دنياك ألوانَ الحياه
من شقاء وصفاء ومَهانات وجاه
فأطيلي وقفة الآسى على النبل المَهينِ
وصُباباتِ أمانيّ وجاهْ .... واذكريني

* * *

وإذا رفرفَ عصفورٌ بأجواز السحابْ
مَرِحَ الخفقة واللَّفتةِ صدّاح الإياب
وتدلَّى .. فرأى في العشّ أظفار الخراب
ورأى أفراخَه الزُّغبَ دِماءً في التراب

فاذرفى من دمعِكِ الغالى على الطير الطعينِ
ونفوسٍ شقَّها ذلُّ التراب . . . واذكرينى

* * *

وإذا ألقت بأيديها إلى القيظ الظّلالْ
واستباحت لفحةُ الشمس محاريبَ الجمال
ورنا الزهرُ إلى النــــور بأجفانٍ ثِقال
وتمشت فى رحاب الكون أنفاسُ الكلال
فأحِسِّى اللَّفْحَ والضِّيقَ مع الظلِّ السجينِ
وانشدى الرَّوح لأبناء الكلال...واذكرينى

* * *

وإذا أنَّتْ على صمْتٍ من الليل الرِّياحْ
وتوارت فى دياجى السحب آفاقُ الصباح
وأفاق الطيرُ من نجواه مذعورَ الجناح

وصحت من حولِك الدنيا على وخز الجراح

فدعى روحك تنساب مع اللحن الحزينِ

وامنحى الرحمة أنضاء الجراحْ ... واذكرينى

* * *

وإذا ما خفق الشجوُ على سُمْرِ الغصونْ

باكياتٍ تاجَها الأخضرَ فى كفِّ المنون

وتبَدّى الأفقُ الشاحبُ مقرورَ الجبين

وطَفَتْ فى خَلَدِ الأحياء أحزانُ السنين

فابعثى فى نفسك المراح مطوىَّ الشجون

وجراحاتٍ أقرّتْها السنينْ . . . واذكرينى

ثورة الإلهام

يا حياتى . . . أدركى العهدَ فقد طالت نَواكْ
وهفا قلبى إلى سرٍّ وعَتْـــــه مقلتاك
طال ما أمضيتُ أيامى ولا نجوى سواك
وطويتُ الليل مهجوراً وفى صدرى هواك !
قرِّبينى . . . ودعيـــنى أتَنَفَّس فى ذَراك
ودعى لحنـك يسبح فى صفاءٍ من رضاك
حدِّثينى . . . قد أبَيْتُ الرَّوْح إلاَّ من شذاك
وسئمتُ القولَ إنْ لم تبتدعه شفتاك
يا لهــذا الصوت ريَّان بفيضٍ من نُهاك
يا لألفاظك نشــوى فاتنات كصباك !

* * *

قرِّبى رأسَك منى واهمسى همسَ الحبيبْ
ما الذى قلت ؟ أعيدى ذلك اللفظ الغريب
أذكَرْتِ الإثم ؟ يا لى من رفيقٍ لا يغيب !
اسكتى ... لا تنطقى بعد ... فما ينجى الهروب
اسكتى ! قد نطق الماضى بصوت من لهيب
وتلوّى فى كيانى ذلك السرُّ الرهيب
اتركينى ... فلدى الماضى من القول ضُروب
يستحى صَوْتُك لُقيــــاها وتأبَى أذناك

* * *

يا فتى الحان تقــــدّم وأدِرْ لى الصبوات
هات لى الكأسَ ففى الكأس شفاء الذكريات
يُنسخ الماضى بسلواها ويحــلو كل آت
اسقينها قبسا تعنــــو لديه الظلمــــات

تضحك النشوة فيها وتمـــور النزوات
ربة النسيان . ما أمست على همٍّ فبــات
اسقنيها . . فرغت كأسى . . فلا تغفل وهات !
ها هى النشوة تحـدونى إلى وادى السبات
عالم الأحـــلام والأوهام والحظ المؤات
خدِرت رأسى . . . وأغفت من حَوالىَّ التِّرات

* * *

عجبا ! ... ماذا أرى فى كأسىَ الطلق المنير ؟ !
قطرة ســـوداء تطفو فى ســكون وتغور
ثبتت عينى عليها . . . حيثما سارت تسير
ويح عينى ! ها هى القطرة تغــلى وتفور
تركت كأسىَ قارا وشواظا من سعير
إنه الإثم ! . . إذا ما خِلتُــــه نام يثور

أيها الكأس تحطم ! . . وتحطم يا سرور !
طاردت روحيَ آثامي فما يجدي انفلات

* * *

أيهذا الروض . . . يا سلوةَ أنضاء القضاء
يا رجاء اليائس المكروب إن عَزَّ الرجاء
قصدتك الروح حسرى بالذى جلَّ وناء
وأتاك القلب لهفان إلى ظلٍّ وماء
ومهادٍ يلتقي الإصباح فيها بالمساء
نعست فى ساحها الأظلال واسترخَى الضياء ...
وغدير عرفت أمواجُه معنى الصفاء
لا سَموم الصيف تُزجيها ولا ريح الشتاء . .
وغناء رفَّ فيه الصبر وانساب العزاء
لعبت من حوله الأفراح واستخذى الشقاء

* * *

آهِ . . لـكنى أُحِسُّ الشرَّ يدنو من بعيدْ
وأرى الروضَ سقيمَ الشّرح مَمْرورَ الصّعيد
كدِرَتْ أمواجُ هذا النهر واستخفى النشيد
ومشى فى ضفتيه الضـــيقُ والهَمُّ المُبيد
لا المساء العذب فى الشطِّ ولا الصبح الوليد
سمعت أذنى فحيحَ الإثم فى ظل الورود
كامِناً يقرع للفتـكة أنيـــابَ الحقود
أيهـــا الروض وداعا وعلى الأمْنِ العفاء !

* * *

يا حياتى .. أوصدت سبلى وضاقت بى الرّحابْ
وانتهى سعيى إلى قفرٍ من السلوَى يباب
فيه من حَرٍ ومن قُرٍ ومن ظفرٍ وناب
رَصَدُ الإثم . . . ومن كالإثم يغتال الرغاب !
ياحياتى ... فجّرى الينبوعَ من خلف السراب

ما شفائى نغمة الثغر ولا همس الحباب
أنا ذاك الآثم العاصى . . فكونى لى المتاب
واسمعى منى سرًّا جلّ عن سمع الصحاب
ليس يلقاه سوى قلب إلَهىٍّ الإهاب
يرحم العاصى ويعفو ويرى الإثمَ العذاب

* * *

يا حياتى . . أنا ذِبْحُ الصمت والسرِّ الأليمْ
أنا أصداء شقاء ونُفاثات جحيم
كلما مال بى الهَدْىُ إلى نهجٍ قويم
ردّنى للإثم والأرجاس جَلّادٌ رجيم
مِن حنين الروح للدنيا ومن نبض الكلوم
من رفيف الشوق فى الصدر ومن همس النعيم
أنا يا دنياىَ فى الدنيا شعاع فى غيوم
فاسمعينى تسكن الروح وينجاب الضباب

جنة الأوهام

أسلمتُ للوهم أفكارى ووجدانى
وذقتُ فى خَدَرِ الأوهام سُلوانى
أمضى مع الناس لا عينى بشاهدة
ما يشهدون . . . ولا صوتٌ بآذانى
دنياىَ عالمُ أحلام مهوِّمة
تهفو فتمسح آلامى وأشجانى
واغتدى ورؤاىَ البيضُ تبسم لى
وفى خيالىَ تهويماتٌ وسنان
هجرتُ ما كان من يأسى ومَوْجِدتى
وصغتُ بعد مرير الصمت ألحانى
كم ظِلت أَضْرِبُ فى دنياىَ مُحْتقِباً

فى القفر شـــوق وآمالى وتحنانى

يَلوكهُنَّ فؤادٌ جائــعٌ بَشِمٌ

من الأسى وضمــــير مثقل عانى

نَوازِعٌ من رِغابٍ طال ما احتبستْ

وطال ما لقيتْ من سوط سجّانى

يعتاقها عن طِلاب الرّحب محبسُها

فتلتظى لهبًّــــــا من نار حرمانى

خرساء منطقها وَخْــــزٌ وشارتها

وَقْعُ المعاول فى موهون بُنيانى

تململتْ فأصاب القلبَ حرقتُهـا

ومَلّ جذوتَها صـــــبرى وإذعانى

ناديت من ألمى وهمى فأسعدنى

بجنة من خيالى ذات أفنان

أطلقتهنَّ بها يمرحن فى شغبِ

ونمتُ بعد سهادى ملء أجفانى

وعِفْتُ صحوةَ دنيا كنتُ أعشقها

وبتُّ أشرب من دَنّىّ ومن حانى

ساقٍ ألبَقُ من دارت على يده

كأسٌ وأعرف آسٍ عند أحْزانى

إذا طلبتُ عـزيزَ الراح بادرنى

وإن طلبتُ رخيمَ اللحن غَنَّانى

فى كلِّ دفقة كأسٍ ينتشى أملٌ

وبغيــةٌ سئمتْ أعماقَ نسيانى

أرى بأفقىَ ما أخمـدتُ شِرّتَه

من الرغاب وسُحْباً ذات ألوان

بكل دانيــة منها يطالعنى

مجدى وحبى وأعوانى وخـــلانى

أروح للحب حتى يــكتفى نهمى

وأنهل المجـدَ حتى يرتوى ظمأى

نجوايَ فى الليل أبـكار معطرة

أبيتُ ليـــــلىَ أرعاها وترعانى

أصوغ من ألَقِ الأطياف فتنتَها

وقلبَها من وفاء عاطفٍ حانى

غَنِيتُ بالوهم عن دنيـــــا مختبلة

تلقى القياد لذى جاه وسلطان

يذوق لذة ما أولتـــــه نعمتُه

بحِسٍّ أبْـلَهَ غافى القلب سأمان

تلقى القياد . . وتلقى من مرارتها

إلى فمٍ برحيق الشهـــــد هيان

يُحِسُّ كلَّ شهيٍّ في قـــرارته
بِمُـتْرَفٍ من سَرِيِّ الذوق فنّان
مُدَلَّهٍ بالنعيم الحـــلو يدركه
بالروح والجسم . . . بالباقي وبالفاني
دماؤه شهوة حمراء دافقـــة
والروح بالشهوة البيضاء في حان
أمضيت رَيْقَ شبابي في الحياة لَقًى
أطفو على ثَبَجٍ بالهمِّ ملآن
أرعى بقيـــــة إيمان أعللهـــا
ويطفر الشـــكُّ من آنٍ إلى آن
حتى تراءت ليَ الأوهام في شفق
ضافي الجمال على الآفاق فتـــان
خفقتُ مِلْءَ جناحي نحو ساحته
وضاع بين الرؤى شَـكِّي وإيمـاني

نداء المجهول

إذا عطرُك النَّفاح طاب عبـــيره
ورفَّت به الأحلام أيان يغتدى
تمثلَت الأسرارُ فيك روائعا
يخفُّ لهـا قلبي وتقصر عن يدى
فلا تسـلبي قلبى مسابحَ وهمـــه
ولا تحرميه الشوق .. فالشوق مَوْردى
ولا تهدمى صرحًا أقمتُ عمادَه
بأشواقىَ الحَرَّى وحرمانىَ الصَّدِى
تسامَىْ وتيهى واخطرى في غمـامة
من الوهم أن يقلع دُجاها تبَـدَّدِى
دعينى أَرِدْ نبعَ الشــقاء وانتهى

إلى الألم المعبود فى كل مقصـــد

وأحيا بِوادٍ من عــذاب محبّب

تطيب به نفسى المَلول وتهتدى

وأمضى كما شـــاء الخيالُ محيّرا

أروح بإخلافٍ وأغـدو لموعد

مقلقلَ وجـــدانٍ مزعزَعَ خاطر

خفوقَ الأمانى بين ماء وجلمد

بنعمة معشـــــوقٍ ولوعة عاشق

وذلّةِ مملوك وعزة ســـيد

فما العيش إلا خفقةٌ قُدسـيـة

لطلعة مُشْقٍ أو لِمَقْدَمِ مُسْعِد

وما عشقتكِ النفسُ إلا عُـلالةً

عن الأمل المنشود فى ظلمة الغـد

حطِّم تماثيلك

يا شاعر الأحلامْ
أشعِلْ قناديلَكْ
فالليلُ بالأظلام
يغذو أباطيلك
يا صانع الأوهام
حطِّمْ تماثيلك
وادخُلْ مع الأقوام
في زحمة الدنيا

* * *

يا مَشْرِقَ الأصباحْ
يا أفقَ الملهم

قد أُفسد المصباح
من طول ما أظلم
واستَنَّت الأشباح
فى خاطرى المعتم
فابسط إلىَّ الراح
بالنور والسلوى

***

ألقى بىَ المقدورْ
فى قبضة الحسنِ
يا فرحتى بالنور
من كُوَّة السجن
كفرحة العصفور

بالماء والغُصْن

يا قلبيَ المقبور

قد آن أن تحيا !

***

قد أفسحَ السجّانْ

ما أحْكَم الوجْدُ

وأغفَلَ القضبانْ

فَلْيُنْجِكَ البُعد

قد جاءه هيمانْ

يحلو له الوِرْد

يا مهجة الظمآن

ما أبعد السقيا !

***

قــــد جاءهُ مشتاقْ

يســـعَى إلى السرِّ

فحـــوّلَ الأطـــواق

للقـــادم الغِــــرِّ

فاســـبِق إلى الآفاق

فى قـــدرة النّسر

يا قـــلبيَ الخفّـــاق

إياك أن تعيا !

***

بادِرْ إلى اللّــــذاتْ

يا قلـــبيَ الضـــاوى

واهزأ بمـــا قـــد فات

من نُسْـــكك الغــــاوى

واسمَع إلى أصـــوات

تستنهض الثـــاوى :

ما أعجب الأمـــواتْ

في جَنّــة المأوى !

* * *

ما أعجب النُّـــوّامْ

في عالمٍ ســــاهرْ

بالرقـــص والأنغـــام

من مزهر ســـــاحر

أغفَوْا لدى أصـــنام

من صــــنعة الخاطر

يا ضـــيعة الأيـــام

في الشوق والنجوى !

* * *

يا خاطرى الوسنان

ما أسعد النائم

لو غيّب اليقظان

ترنيمَه الباسم

أو خافتَ الرُكبان

بالموكب الباغم

قد أيقظوا الحرمان

من غفلة التقوى !

***

يا عاشق الأَضداء

من غور ماضيك

وداعىَ الأنباء

من غيب آتيك

في يومك الوضـــــاء

سِحْــــرٌ يناديــكْ

فادخـل مع الأحيـــاء

في زحمـــــة الدنيا !

إلى الليــــل

« قصيدة لم تتم »

بسطتَ دجاكَ يا ليــــلُ
وخلف دجاك أحـــلامُ
وآمـــالٌ به تحـــلو
ولـــذّاتٌ وآثـــامُ
فما بالى . . . لك الويلُ !
يجفُّ بكفّيَ الجـــامُ
وفيـــك من الرؤى سيلُ
لمن سهرا ومن نامــوا
كأنّى فى الورى نَفْــلُ !

* * *

هُنا في سجنيَ العالي
أُقيم على الأسى وحدي
قريبا من دُنا الآلِ
بعيداً غايةَ البعدِ
هُنا في مضجعٍ بالي
وبين حوائطٍ رُبْدِ
أُهَوِّم تحت أغلالي
فأدركُ ذِلَّةَ القيدِ
وأنسانيهِ تجوالي

***

هُنا يا ليلُ ينجابُ
ضبابُ العيش والناسِ
ويُفتح للأسى بابُ

ويفهقُ بالشـــجى كامى

ويبـــدو الظفرُ والنــابُ

من الأوهام واليـــاس

وحولى للـــــدجى غابُ

أُخالِسُ فيـــــه أنفاسى

وصـــوتُ الرُّعب صخّابُ

***

أُنَمِّــقُ فيكَ أحـــــلامى

وأتلوهـــا على خـــوفِ

وأجرَعُ فيـــك أوهامى

وما فيهنَّ ما يشـــفى

عُـــــلالة قلبيَ الظـــامى

أقطِّرها من الشُّــــذفِ

فتقتــــل فيَّ إقــدامى

وتُزجيـــــنى إلى حتفى

ولم أســـتوف أيامى

* * *

يَمُـدُّ جناحَـــه الخافقْ

جســـورٌ من خيـــالاتى

ويضرب فى سُرى العـاشق

إلى دنيـــا الســـموات

فيجــذبه الثرى المــائق

بخيـــط محكم عاتى

فيهوى من ذرى شاهق

إلى قاع الحقيقـــات

ويلعق جُرحـــه الدافق

* * *

يؤرِّقنى الدجى القـــانى

بجُمْـــرٍ كالدُّجى سُـــفِعِ

ربائبُ أمسىَ الفـــانى

يضيق بلغوهــــا ذَرْعى

وتنبُض فىَّ أشجــــانى

فينــكر زفـــرتى سمعى

وأدعو فيــك إخـــوانى

فمــا يصغى ســـوى دمعى

وما فى الدمع ســـلوانى

* * *

يطنُّ الصمتُ فى أذنى

رتيبًــــا ما له آخــــر

ويصــــفر نابىَ اللحن

صـفيرَ الُجنْدُبِ الســـاهر
يغلِّف مســـمعى رُدْنى
فينفـــذ كالردى الجـــائر
وأغمض فى الدجى عيـــنى
فيبدو فى الدجى ســـاحر
توسّـــطَ سامرَ الجنِّ

* * *

يُدير بكفِّه سُبَحَـــا
حصـــاها هامُ أصـــلالِ
ويرشـــف وادِعاً قدحا
يحرِّق راحـــةَ الصالى
يضـــجُّ كأنما نبحَـــا
بهمهمـــةٍ وأعـــوالِ

رجـــاء

تَعالَىْ فتنـــةَ القلبِ
تعالىْ نشوةَ الصّـــاحى
أقصُّ عليــكَ من كربى
ومن شجوى وأتراحى

***

تعـالَىْ . . . فالأَسَى فَنٌّ
إلى الأرواحِ سَـــبّاقُ
عميقٌ ذلك الحزنُ
وما فى الفَــرْحِ أعماق

***

تناسَىْ حُلْمَـــك السّارى

على أضـــــواء ماضيكِ

وهيـــــا فاشهدى نارى

لعــلّ النارَ تهـــديك

* * *

حياتى كلهـــــا شَفَقُ

قصـير العمر مجـــروحُ

مضى ما ضَمَّــــهُ أفُقُ

ولا طـــربتْ له رُوح

* * *

فواســــينى إذا أنّتْ

بوجدى فيــكِ أنغامى

ونادينى إذا حَنّــــته

إلى شـــفتيك آلامى

* * *

إذا ما عطـــر أنفاسِكْ

تلاشت فيـــه أنفاسى

شربتُ الفَرْحَ من كاسِكْ

وعفتُ الهـــمّ فى كاسى

وماذا بعــــد ؟!

وماذا بعـــــدُ يا قلبى !
إلى مَ نهيم فى الدربِ
ونتبـع حادىَ الرَّكبِ
بــلا قصـــدٍ نؤمّمه
ولا هــدفٍ يُناديِنا ؟ !

***

إلى مَ نُهَــدْهِدُ البلوَى
ونـكبت أنَّةَ الشـكوى
ونجرَعُ زائفَ الســلوى
وقد فارت أمانينـــــا ؟

***

شباب تائهٌ حائرْ
يُداري جَدَّه العاثر
ويهتف : هكذا الشاعر
فليتَ الفنَّ يهجرنا
وليت الشعر يجفونا !

* * *

كفى يا قلبُ أوهاما
تغول اليومَ والعاما
أنقضى العمرَ نُوّاما
بلا عملٍ يمجّدنا
ولا ذكرٍ يواسينا !

* * *

كفى يا قلب إجفالا
فهذا العجز قد طالا
ولسنا بعدُ أطفالا
وما تجدى رؤى الحالم
لذى ست وعشرينا

* * *

أعجز ذلك الخَدَرُ ؟
فما للعزم يقتدر
وما للصدر ينصهر
بلهفةِ رُوحىَ الحَرَّى
وشوق ليس يألونا ؟!

* * *

ألا يا ليتها تصفو
سحائبُ للمنى وُكُفُ
فيبدو الحقُّ والزيف
ونعرفُ بعدُ ما غدُنا
بحاضرنا وماضينا

إذهبي

اذهبي !.. قد سئمتُ فيك النضالا
وتهاوى إلى الفنـــاء اليقين
اذهبي ... ما أريدُ بعدُ جمالا
تغتلي تحتــه دِماء وطينُ

***

قد أسمتُ الغرام عَزْمَ أبيٍّ
ووأدتُ الغـــداة حُبَّكِ حيّا
ثمّ هلتُ الثرى بـكفٍّ خليٍّ
ونفضتُ التراب عن راحتيا

***

اذهبي وارفعي الفجـــور لواء

تتداعَى إليـــه حمرُ الرّغابِ

وامرحى واملأى الفضاء عُواء

يُشعِلُ الجمرَ فى عُروق الذئابِ !

* * *

جسدٌ أنتِ ... ما لديك غَناء

لنفوس مسترسلاتِ الخيـــالِ

وقلوب قد شفَّها الأعيـــاء

وجُفُونٍ من الظلام ثقالِ

* * *

أنتِ كأس يشتاقها عربيـــدُ

يتشهى فى مقلتيـــه الهواء

مظلم الروح ... فى الضلال عتيدُ
كلُّ فضل لدى هواه هباء

* * *

قد ألفْتِ الشّفاهَ بالرّاح ريّى
وألفتِ الأكفَّ بالإثم سكْرَى
فاجتويتِ الجفافَ من شفتيّا
وسئمتِ المنى بكفّيَ حيرى

* * *

قد عرفتُ الهوَى المؤجَّجَ حوْلا
ثم ولّى وطاب عنكِ عزائى
لستُ آسَى على غرامِكِ لولا
لحظاتٌ أضعتُ فيها إبائى

* * *

خلتُنى فيكِ بالضراعة أجلو

جوهرَ النُّبل والهدى والخلاقِ

فإذا أنتِ للغـــــواية ظلٌّ

وإذا الشرُّ منكِ فى الأعماقِ

***

بيْن جنبيكِ . . . فى دماك تلظّتْ

شعلةٌ للفجـور تطلبُ وَقْدا

لفحت مقلتيكِ ثمَّ استقرتْ

فى شفاهٍ ترُود فى الناسِ وِرْدا

***

أنتِ أدركتِ بالغريزة أمرى

فطرةُ الشرِّ لا تضلُّ الطريقا !

لا أرويك . . قلّ عندك قطرى

وقوافٌ لا تذكى حريقــــا

* * *

اذهبى قــد أثرتِ فىَّ إبائى

فتمطّى وحطّم الأغــلالا

أمَةٌ أنتِ من صميم الإماء

اذهبى . . قد أطلتُ فيكِ المقالا !

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي "الفجالة"

٢٠

دار مصر للطباعة
٣٧ (٩) شارع كامل صدقي الفجالة